
كتاب اليوم
حكايات قهوة كتكوت
محمود السعدني
Bibliotheca Alexandrina
0165014

دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

□ عدد يناير ١٩٩٩ □

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريالاً
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	درهما
قطر	١٢	ريالا
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
ألمانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا ـ أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك ـ واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٦٠ جنيها مصريا

● البريد الجوى ●

دول اتحاد البريد العربى ٢٩ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٤ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٩ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٩ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٣٠٣٢١٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

● قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة

● تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

حكايات

قهوة كتكوت

محمود السعدني

مقدمة

كتابة على الأرض

محمد مستجاب

أربعة ظللت أخشاهم دهورا : سيدنا محمد عثمان شيخ الكُتّاب ، خالى أحمد خميس ناظر مدرسة النصارى ، عفريت كان يداهمنى بين ليلة وأخرى أثناء تسللى إلى غيط طماطم الجيران ليلا ، وامرأة كانت تفتح عينها وترفع حاجبها تحديا وهى تخطو فوق العتبة لتدخل إلى واحد من أثرياء بلدتنا دون اهتمام بمشاعرنا ، وخامسهم السعدنى - محمود - هذا الذى جذب القصة من بين آهات يوسف السباعى ونوافذ حارة نجيب محفوظ وإنسانية محمود البدوى وحزن يوسف إدريس المرير ، جذبها من شعرها - هذه القصة المكتوبة فى الورق المسطور ، وألقى بها على أرضية الشارع المكفهر ، لتتلوى صارخة ضاحكة تتلاطم مع محلات الكفتة ولحمة الراس والمميار

ولفائف البطولة الصارخة الواهنة ، وسحب اللغة الرصينة الدافئة المنظمة من بين جدران أساليب المنفلوطى وأمين الخولى وطه حسين ، وخلع عنها أرديتها لتجرى عارية واقعية فى شوارع الجيزة والأحراش المبكرة لشارع الهرم ، وجعلها ـ إن أراد أن تبدو لامعة ـ تجلس بعض الوقت تداعب بأقدامها الحافية تيارات ناعمة من مياه البحر الأعظم ، ثم يسامر اللغة ـ آخر الليل ـ على قهوة كتكوت ، لتفرز أنواعا من السلوك الواقعى الحقيقى لشعب ظل الكثير من المعبرين عنه يؤلفون له ما لا يعرفه ـ هذا الشعب ـ أبدا .

كنت ريفيًا أتلهف على قراءة ما أستطيع الوصول إليه من أوراق ، حينما عاد محمود السعدنى من الجزائر لينشر تحقيقاته المتفردة عن ثورتها ، ظل أيامها يثابر (يهابر أفضل) كى يجد طريقا للخروج عما هو معهود من السياق اللغوى والمعانى الجميلة ، وخلال ذلك ، أو قبل ذلك ، قرأت له أقاصيص فى مجلة التحرير أو الرسالة الجديدة ـ فيما أعتقد ، وكان من بينها ـ والاعتماد هنا على الذاكرة الصبيانية الرائقة ـ قصة (جنة رضوان) التى حملت فيما بعد عنوان مجموعة كاملة ، لكن الأخطر من كل ذلك أنه ـ بعد ذلك بسنوات ـ كتب روايته الحلوة الشائكة الواخزة : حتى يعود القمر ، بالطبع كانت الرواية على غير النسق والمعانى المعهودة السائرة والسارية أيامها ، فقد فتح السعدنى بطن الواقع الذى كانت اللافتات والشعارات والمكتوبات من قصص ومقالات وروايات قد جهلته (لم أقل تجاهلته) ، كانت حروب الفدائيين ضد الانجليز فى معسكرات القنال قد استولت ـ بطبيعة الأمر ـ على عواطفنا فور إلغاء

المعاهدة الشهيرة بالصداقة ، وهو ما أثبت قدرة هذا الشعب المصرى (أيامها) على الصلابة والقدرة والتحمل ، ووقع شهداء من كافة الفصائل مدنيين وشرطة ، مما أدى إلى ثورات عارمة فى الشوارع - فى كافة البلاد - تندد بالنظام الخائن والملك الخائن ، حتى وصل الأمرإلى حرائق القاهرة الشهيرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وخلال اضطرابات سياسية وتغييرات وزارية واعتقالات ثورية ، قام عبد الناصر بانقلابه المعبر عن هذه الثورة (وأنا أميل إلى الإنصات إلى استنتاج يشير إلى أن عبد الناصر قطع الطريق على ثورة شيوعية) ، وكل ما كتب من موضوعات أو تنظيرات لم تومىء أبدا أو تكتشف أو تغوص فى أتون النار الذى اشتعل فى قناة السويس أثناء حرب الفدائيين ، فالحس الشعبى بالذات ظل خاضعا للشعارات والعاطفة الوطنية أكثر من الإمعان فى فلسفة السلوك الشعبى فى أرض الموقعة ذاتها ، وكان مدهشا لدرجة تثير اضطرابى الصبيانى أن أجد فى رواية السعدنى - حتى يعود القمر - آدميين يجعجعون صارخين بالشجاعة مقابل هؤلاء الأبطال الذين استشهدوا بالفعل ، إنهم أناس من الواقع الفعلى الذى يقع فى شباك السلوك العفوى التلقائى من حداقة (وصف للرجل الحدق الذى يبدو فاهما) وحركات فتونة وتراقص واستذكاء خلال عمليات تهريب السلاح للفدائيين أو إيوائهم ، كانت طبيعة الناس تتفسخ فى الرواية كاشفة عن أمور لا نحب نحن الكتاب أن نتورط فيها عادة ، وهى ثورة تعبير لم يدركها أحد من النقاد حتى الآن ، ادركتها وحدى وكانت من بين أسباب اقتحامى الشخصى لهذه المعانى والمثل التى يصمم كتابنا أن

يحافظوا عليها معتقدين أنها تصنع المجد الشعبى العظيم .

ولم يغب السعدنى عن بالى أبدا ، كنت قد كبرت وظللت - فى تلك السنوات المريرة الطويلة - أبحث عن عمل دون إهمال فى الوقوع داخل حفر الغرام الملتهب بين مرارة وأخرى ، لكنى ظللت مع السعدنى فى مواقعه المبكرة مع لويس عوض ، ومأمون الشناوى ، وشاركته أسى اصطدامه بيوسف السباعى أيام علاج طفلته الغالية (هالة) ، وما صاحب ذلك من مرارة الواقع المصرى ، وظللت أتقلب بين ربا وتلال ووهاد ووديان وجزر وخرابات وحدائق وسجون ومطاعم ومجالس تحشيش وشرب بوظة ومتاجرة فى شعارات ، العالم عنده يتسع ويتسع حتى يملأ حارة بالجوعى ، ثم يضيق ويضيق حتى يختنق بين قارة افريقيا ، الواقع هو سيد الموقف ، والحس الشعبى الغامر هو رقصة الزار الصاخبة التى بسببها سجن واعتقل - هذا الكاتب الجميل المتفرد - فى كافة العصور ، ولاذ بعثمان أحمد عثمان فى المقاولون العرب ، ثم هرب إلى لندن (وبالمناسبة كان يصدر مجلة ٢٣ يوليو أو يكتب فيها خلال تلك السنوات التى تكاره فيها مع السادات) ، ثم إلى الخليج ، حياة تبدو مترفة بالمرارة والغربة والحزن الذى يكوى سراديب العقل والفؤاد ، حيث ينتهى الامر - كل الأمر - فى طاسة تعبق برائحة الكبدة المحمرة بالبقدونس ، وقد حاصرتها جدران المعتقلات : الحوائط والكلمات .

وظلت خطوطى مع السعدنى تتوازى (الخطوط وليست الحياة ذاتها) ، اشتغلت فى السد العالى (وبالمناسبة كنت فى شركة عثمان) وعدت إلى القاهرة لأتزوج وأظل سنوات طويلة

فى مجمع اللغة العربية ، واقرا السعدنى ، واشارك فى مهاجمة السعدنى وافتح بطنه واقلب تجاربه وازداد به حبا ، وانتقادا ، وسخرية .

●●●

منذ شهور ـ قد تتجاوز العام ـ جاءنى صوته الشارخ فى التليفون : واد يا مستجاب .. عاوز أشوفك .

وتوجهت إليه ...

١ ريمو

من هنا وإلى ما شاء الله سنحكي للقراء قصة بزوغ وسقوط قهوة كتكوت وقهوة كتكوت وإن كان لها شكل القهاوى المنتشرة فى كل ركن فى ربوع مصر ، إلا أنها كانت بحق نموذجا مصغرا لمصر كلها ، وهى دون القهاوى كلها كانت تغير جلدها عدة مرات فى اليوم الواحد ، فى الصباح الباكر كان يتردد عليها بعض كتبة المحامين ، وجمع كثير من الفلاحين الذين ينتظرون النظر فى قضاياهم أمام المحكمة وفى الظهيرة كان يجلس عليها بعض الطلبة المزوغين من مدارسهم ، وبعض عمال استديو مزراحى ، وهو يهودى إيطالى عمل مخرجا بالسينما المصرية ، وأحيانا كان يتجمهر أمام القهوة بعض الصبية والشباب للفرجة على بعض الكومبارس الذين كانوا يترددون على القهوة حتى يحين دورهم فى الوقوف أمام الكاميرا وكان فقراء الجيزة ينظرون إلى هؤلاء الكومبارس نظرتهم إلى النجوم ، وكان تلاميذ مدرسة ميلاد يصحبون معهم مصورين يحملون آلات عتيقة لها ستائر سوداء بالإضافة إلى جردل مملوء ماء لزوم التحميض . وفى ساعة المغربية كان يقصد القهوة جماعة من الموظفين ـ صغارا وكبارا .. من العاملين فى دوائر الحكومة من درجة رئيس قلم ومدير إدارة .

وكان هؤلاء حريصين كل الحرص على ارتداء ملابسهم كاملة ، مع

الاكسسوار اللازم من منشات وعصى بعضها كريز وبعضها ابنوس وفي تلك الفترة التي تمتد من المغرب وحتى الحادية عشرة مساء ، كان الهدوء يخيم على القهوة ، فلا صوت يعلو أكثر من اللازم ، ولا درجة حرارة المناقشات ترتفع أكثر من الضروري وعندما يغادر الموظفون قهوة كتكوت ، تشهد القهوة نوعا آخر من الرواد ، مجموعة من الأدباء والصحفيين ، وهؤلاء تسبقهم جلبة وضوضاء ، والسبب أن مجموعة من طلبة الجامعة كانوا يأتون مبكرين قبل حضور الأساتذة ، وكان هؤلاء يبدأون المناقشة قبل بدء الجلسة ، يصيحون ويصرخون ويسبون بعضهم بعضا ، وعندما يحضر الأساتذة كان الهدوء يعود إلى القهوة ، ولكنه هدوء يختلف عن هدوء الموظفين وكانت جلسة الأدباء تنتهي عند الفجر ، ومع أن السهر كان ممنوعا بعد منتصف الليل ، إلا أن عساكر الداورية كانوا يشعرون بحاستهم السادسة أن هذه النوعية من الزبائن تختلف عن الزبائن الآخرين ، وربما كانوا يعتبرونهم جزءا من الحكومة خصوصا وأن جلستهم كان يتردد عليها بعض « اللواءات » في ملابسهم الرسمية وكان المعلم كتكوت نفسه يبقى أيضا في مكانه لا يتحرك وقد بدت عليه علامات الزهو لوجود هؤلاء السادة ضيوفا على القهوة وبالتأكيد فإن زهوه لم يكن سببه معرفته بأن هؤلاء الزبائن من الأدباء ، ولكن لأنه كان يؤمن بأنهم من رجال المباحث وبعد انصراف الأدباء وتلاميذهم من الطلبة كان العمال ينهمكون في تنظيف القهوة وغسيل الصواني والملاعق والأكواب ، ومع ذلك كانت لا تخلو من زبائن آخرين ، أبرزهم زنوبة وهي امرأة كانت لها شنة ورنة ، وكانت أثيرة عند كبار تجار الماشية والحبوب ، ثم تدحرجت بها الأحوال عندما تقدمت في السن ، فأصبحت أثيرة لدى طلبة الجامعة الريفيين الذين جاءوا لتحصيل العلم في القاهرة ثم تدحرجت أكثر حتى أصبحت مرغوبة عند طبقة الشيالين والعتالين

والتباعين ، وكانت تمارس الحب في سيارات النقل أحيانا وعلى الرصيف في أغلب الأحيان وكان من عادتها أن تسرح طول الليل في شارع الترماى وفي الشوارع المتفرقة من الميدان ، فإذا ظهر ضوء الصباح لجأت إلى قهوة كتكوت فتشرب الشاى بالميزة ، وتدخل في خناقة حامية مع الواد ربيعو ، ثم تضطر إلى مغادرة القهوة بعد أن يلعن لها المعلم كتكوت « أباها » ، ولكن زوبة لم تكن من الناس الذين يرعبهم الصياح ، ثم أنها كانت تعرف المعلم كتكوت جيدا وتعرف أنه رغم منظره المخيف إلا أنه كان من النوع الذي يحاول بالصوت إرهاب خصمه ، فإذا لم يخف الخصم وأظهر ميلا إلى العراك تحول المعلم إلى عجينة لينة رهشة وظهر على حقيقته مجرد جعجاع لا غير ولذلك كانت أغلب خناقات زوبة والمعلم كتكوت تنتهي بطلب واحد شاى للست زوبة على حساب المعلم ، الذي كان يتنازل ويجلس مع زوبة يذكرها بالأيام التي ولت والزمن الذي كان وفي أثناء جلسة الصلح كان المعلم كتكوت يحكي كذبا عن علاقته الطيبة مع زوبة التي لم يكن لها وجود في أي يوم من الأيام فقد كانت العلاقة بينهما متوترة ، وكان المعلم في أعماقه يحقد عليها إلى حد بعيد ففي أيام عز زوبة ، حين كان يتخطفها التجار الأثرياء وأصحاب الوكالات وتجار الجملة في ساحل الغلال كان المعلم كتكوت في أيام شبابه ذا شارب مفتول وصحة مش بطالة ، ولكنه كان مجرد قهوجي ، ولهذا السبب لم يتمكن من دخول دائرة عشاق زوبة ولما كان المعلم كتكوت يرى نفسه أحق بزوبة من الآخرين ، فقد بادلها احتقارا باحتقار ، وكان يتجاهلها عن عمد ، حتى فوجيء ذات صباح بدخولها القهوة تطلب كوب ماء مثلج ودعاها المعلم إلى زجاجة قازوزة سباتس ، ودعاها إلى الجلوس ولما كان الوقت مبكرا فقد مازحها المعلم ومازحته ، وامتدح حسنها وجمالها ، وشكرته زوبة ، وتمادى المعلم وطلب لها شيشة ، وانهمك في توليعها حتى

أصبحت تمام التمام ، ثم مد يده بالشــيشة فلما مدت يدها ، تجاهل اليد الممدودة ووضع الشيشة بين شفتيها ثم نزل بيده على صدرها البارز فى حركـة تبدو للفشسيم أنه لا يقصدها ولـكن زوبة الاروبة دفعت يده بعيدا وهى تلعنه وتـلعن أباه ، وخاف المـعلم كـتكوت من الفضـيحـة فاقسم براس المعلم كتكوت الكبير أنه لم يقصد شيئا على الإطلاق وأن يده اصطدمت بصـدرها البـارز دون إرادته ومن يومها وحسـك عينك لا يرتكب المعلم كتكوت أى خطأ مع زوبة .

وإذا كانت هذه السطور لـمحات عاجـلة عن قهوة كـتكوت ، إلا أنها كانت ضــرورية قبل أن ندخل فى صلب الموضوع ، لكى يعـرف القراء أن قهوة كتـكوت وإن كان لها شكل القهاوى إلا أنها تخـتلف عن جميع القهـاوى ، فزبائنها ليـسوا من نوع واحد أو لون واحـد ، وتاريخنا لها يبدأ فى العام الذى سبق قيام الحرب العـالمية الثانية وإذا كانت الحرب العالميـة قد نشبت فى أوروبا ، فقد أثرت بشدة على قـهوة كتكوت فى الجيـزة وعلى العامـلين فيـها وعلى زبائنهـا المتـرددين عليهـا ، وكان تأثيـرها الأكبر عـلى صبى القـهوة (ريعو) وهـو رجل فى الخامـسة والثلاثيـن من عمره فى هيـئة ولد فى الخـامسـة عشرة كـان ضـئـيلا ونحيلا ومـصابا بالهزال بسبب البلهـارسيا وسوء التغـذية وكان بينه وبين المعلم كتكوت ما صنع الحداد وبالرغم من ذلك لم يفكر ريعو فى الاستقالة ، وأيضا لم يفكر المـعلم كتكوت فى طرده ولعل حاجة المعلم كتكوت لريعـو كانت أكبـر من حاجة ريعـو للمعلم كـتكوت إذ كان من عادة المعلم إذا تعكر دمه أو انحرف مزاجه أن يفش غله فى الولد ريعو كان أحيانا يصـرخ فى وجه ريعو حتى تنتفخ عروقـه ويتصبب العرق من جبهته ثم يهوى عليه بالركلات حتى يهدأ ويصفو ويعود إلى حالته الطبيعـية، وعندما قامت الحرب العـالمية لم يشعر الـمعلم كتكوت باى تغيير فـالميـدان كما هـو وزبائن القهوة هـم هم والحياة تمـضى فى

الحرب كما كـانت تمضـــى قبلهـا، صحيـح أن صفارات الإنذار تـعوى أحيـانا ولكن المعلم كـتكوت تعلم بالتجربـة أنها صفـافير كـدابة ، فلا قنابل سقطت ولا شهداء سقطوا ولا جرحى نقلوا للـمستشفيات ولذلك أعطى المـعلم كتكوت ظـهره للحـرب وتفرغ للقـهـوة وللزبائن وللولد ريعو .

أما ريعو فـقد غيرته الحرب كثـيرا فبين الحين والآخـر كان المعلم كتكوت يضبط مع ريعو بطانية جديدة أو خرطوشة سجاير أجنبية ولم يهتم المعلم كـتكوت كثـيرا بهـذه الظاهرة ، فـهو يعلم أن الولد ريعـو عفريت ، وربـما وصلت إليه عن طريق عسكرى إنجليـزى ، ولكن حدث بعد ذلك أن المـعلم كتكوت فكر ذات يوم فى إجراء بعض الاصـلاحات فى القهـوة ، فاستـدعى أحد المـهندسين وطاف به داخل القـهوة وبدأ المـعلم رحلته إلى دورة مـياه قـديمة كـان قـد أغلقهـا لكثرة أعطالهـا وجسامة تكاليف إصلاحـها فكاد يجن عندما وقع بصره داخل الزنزانة على مـخزن عـامر بكل أنـواع متـعلقات الجيش البـريطانى ، بطاطين أشكال وألوان وخراطـيش سـجاير أصناف ومـاركات ، وانهـال المعلم بالضـرب على ريعو حتى كاد يقتله واعتذر ريعو للمعلم لأنه لم يستأذن قبل استـخدام دورة المياه المهجورة كمخزن ، وأقسم المعلم كتكوت أنه سيقـتله إذا لم يكشف له عن الحقيـقة واعترف ريعو بـأن كل الموجود فى القهوة يـعود لحسين الجناينى أحـد رجال الفتوة عبـده الإنجليزى ولما كان المعلم يعـمل ألف حساب للفتوة عبـده الإنجليزى فقد غطرش على المســألة ، مع لفت نظر ريعو إلى عـدم العودة إلى هذا العـمل مرة أخرى ولكن بعـد مضى فـترة قصـيرة اكـتشف المعلـم أن الولد ريعو كذاب وأن البضـاعة كانت تخصـه ولا تخص أحدا آخر فاقـسم المعلم على الانتقام وتلقين ريعو درسا لا ينساه ليس هذا فقط ولكنه استطاع أن يقنع ريعـو أنه نسى الـمسـألة تمـامـا ، وأنه أهمل عـملية إجـراء

إصلاحات فى القهوة ويبدو أن ريعو انخـدع بالفعل فعاد إلى استخدام دورة المياه المـهجورة كمخزن ولم تكد تمـضى أيام حتى هبط ضابط المبـاحث على القهوة واتجـه مباشـرة إلى المخزن وألـقى القبض على ريعـو الذى اختـفى فى السجـن لمدة عـام وعندما عـاد كان قـد ازداد شحـوبا ، ومع ذلك لم يتـردد المعلم كـتكوت فى إعادته إلى عـمله فى نفس اللحظة وريعـو أيضـا أعلن قبـوله للعـمل فى قـهوة كـتكوت فى اللحظة نفسـها بالرغم من تأكده من أن المعلم كتكوت هو الذى وشى به لضابط المبـاحث وكان ريعو إذا لامه أحدهم لقبـوله العمل لدى المعلم كتكوت بعد الذى جرى كان يغمز بعينه ويقول :

ما هى دى فرصتى عشان أقرصه قرصة تطلع بالدم .

ولكن الذين كانوا يسمعون تعليق ريعو كانوا يعلمون يقينا أن ريعو كذاب وجبـان وليس بوسعه أن يرد الضـربة للمعلم ، وأن قـبوله العمل مع المـعلم كتكوت ، هو قـدر مفـروض عليـه لأنه لا يعرف مكانا آخـر يذهب إليـه غيـر قهـوة كتكوت وكـان ريعو يعلم فى قـرارة نفســه أنه لا يستطيع أن يؤذى المعلم كـتكوت أو يثأر منه ، ومع ذلك قال للناس بعد موت المعلـم كتكوت الذى فارق دنيانا بعد أربعين عـاما من انتهاء الحرب العالمية .

نفد بجلده أما أنا كنت مجهز له حتة خازوق .

وضـحك الـناس بالرغم من أنهـم كـانوا يؤدون واجب العـزاء فى السرادق المنصـوب أمام القهوة وبعـضهم تمادى فى السخـرية بريعو وقال له أحدهـم طيب اعتقه لوجه الله عـشان خاطرنا والمسـامح كريم يا معلم ريعو .

المهم أن ريعـو مات بعد المـعلم بعامين اثنين فـقط ، ولكنه للعجب هجر القهوة وانهمك فى تشكيل رابطة لعمـال القهاوى وجعل من نفسه رئيسـا يتقاضـى عمولة من أصـحاب القهـاوى ونسبـة من القهوجـية

وكانت آخر إنجـازاته فى الحياة أنه طبع بطاقات عليـها اسمه مسـبوقة بلقب المعلم ورقم تليفون الحاج سيد الجزار على أنه تليفون الرابطة .

وجرى على قهوة كتكوت مـا يجرى على كل شىء فى الحياة ماتت القهوة بعد مـوت صاحبها بأشهـر قليلة ، اختلف الورثة الذين لم يهتم أبوهم بتدريبهم على أى عـمل غير عمل القهوة وانتهـزوا فرصة عرض أحد التجـار عليهم خلو رجل مائة ألف جنيه فتـنازلوا له عن القهوة مع أنهم كانوا يستأجرون القهـوة وليست ملكا لهم وحل محل القهوة محل آخر ديكوراتـه تكلفت مئات الآلاف ، مـحل أحذية الحـذاء عنده بالشىء الفلانى ولم يكن هذا غـريبا ، ففى السنوات الأخيرة حـلت الجزم محل الكتب والتحف والقهاوى حتى أكاد أقول إن القاهرة تحولت إلى متحف كبير زاخر بكل أنواع الجزم ومن كل المقاسات .

٢ حكاية السيد البسيونى

أقسم عبد الودود أفندى أن يحطم رأس هذا الولد القذر ريعو ، وأن يحطم فى الوقت نفسه رأس المعلم كتكوت إذا لزم الأمر . ما الذى جرى للدنيا ؟ وهل هانت أقدار الناس إلى هذا الحد ؟ عبدالودود أفندى البسيونى .. وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة يأتى عليه حين من الدهر يلقى فيه الإهانة .. وممن من هذا الولد الهلفوت الذى يشبه البريصة الأصفهانى ! هذا المدعو ريعو الكلب .. يزجر عبد الودود أفندى ويصرخ فى وجهه .. قوم بقى هوينا يا عم عبد الودود ! ما كان عبد الودود أفندى يتصور أو يخطر على باله أن يأتى يوم يصبح فيه هدفا لسخرية الولد ريعو . تصوروا .. يطردنى من القهوة مع أن وجودى فيها ينقص من قدرى ويرفع من قدرها ! أربعون عاما مضت وعمك عبد الودود البسيونى يتردد على القهوة وفى مواعيد ثابتة يخرج من المصلحة إلى البيت ، يأكل لقمة وينام بعض الوقت ، ثم يتهيأ للخروج بعد أن يرتدى البدلة والصديرى ويكبس الطربوش على رأسه ويمسك بالمنشة بين أصابعه ، أربعون عاما لم يتخلف مرة واحدة ، ساعده على تنفيذ الروتين إياه أنه عاش حياته أعزب ، فلم يتزوج عبد الودود ولم يفكر فى ذلك ، وكان من عادته إذا جلس على القهوة التصفيق للجرسون .

. فى البداية كان الجرسون يدعى عم عبده ، وبعد ذلك جاء الولد

ريعو . وكـان الولد ريعو حريصا علـى تقديم كل الخدمات لعبدالودود أفندى مع الاحتـرام الـكامل . ولكن منذ سـبع سـنوات تغيـر وضع عبدالودود فى المصلحة ، خرج إلى المعاش عندمـا وصل الستين ، لم يرحمـوه ولم يتركوه يوما واحـدا بعد المعـاش وضاقت به الأرض فلم يكن يعـرف أى شىء إلا الذهـاب فى الصـبـاح البـاكـر إلى مـصلحـة المساحة، ثم العـودة ظهرا إلى البيت ، ثم النوم بعض الوقت ثم الذهاب إلى قهوة كتكوت وقضاء بعض الوقت قبل العودة إلى البيت من جديد ، ليبدأ مشواره الذى تكرر على مـدى السنين . وحرص البسيونى أفندى على أن يقـضى بعض الوقت على قـهوة كـتكوت بعـد المعـاش ، نفس المدة التى كان يقضيها على القـهوة قبل المعاش . واستطاع أن يحافظ على هذا الأمر سنتين كاملتين . ثم بدأ يخرج على النظـام الذى فرضه على نفسـه طول حياته . أصـبح يتأخر على قـهوة كتكوت أحـيانا إلى منتصف الليل وأحـيانا إلى ما بعـد ذلك . الغريب أن البسـيونى أفندى كان يحتقـر الذين يطيلون السهر على قهوة كـتكوت والقهاوى الاخرى وكان يصـفهم بالصيـاع . وهاهى الظروف تحكم عليه بالانضـمام إلى صفوف الصياع وقلالات الاصل . ياله من رصيد سيىء يا عبد الودود بعـد حياة عـريضة وحـافلة بالوظائف المـيرى التى يسـيل لها لـعاب الكثيـرين . ولو أنصف الزمان لهيـأ لعبد الودود صـاحب قلم من بتوع الصحافة يتفـرغ لقصة صعود ورفعة عبدالـودود البسيونى ، الحاصل على شـهادة الثـقافـة العامـة من مدرسـة الدواوين الثانوية . وبعـدها بأشهـر الموظف بقلم المستـخدمين بمصلحـة المساحة . ومن يـومها وعبـدالودود أفندى يلتزم بـالصديرى والكرافـتة والطربوش والعـصا الكريز بين أصـابعـه . وحرص عـبـد الودود أفندى على طلب الشـاى بالحليب ، طبعا طلب واحد لاغير ، ولـكنه كان يدفع فيه ثلاثة تعريفة ، قرش صاغ ثمن الشـاى وتعريفة بقشيش لريعـو . ولذلك حرص ريعو على استقبال عبد الودود أفندى بحركات بهلوانية مبالغ فيها كأنه قرد .

فهذه التعريفة فى ذلك الزمان كان من شأنها تأمين وجبة إفطار كاملة لرجل . ولكن آه من غدر الزمان ومن خيبة البخت وهى خيبة بلا حدود وأدت إلى أن الولد الصايع ريعو يتجرأ على طرد عبد الودود أفندى وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة سابقا ، ويصيح فى وجهه صائحا قوم بقى من ع القهوة وهوينا . يادى البخت الأسود ، وعلى رأى عمك شندى مطرب نزلة أم العواجز قرية عمك عبدالودود . كانت له أغنية شائعة فى محافظة الغربية.. يابخت يابو البخوت ليه لبخت ، الناس تلبخ فى الوحل وأنا فى الناشف لبخت . ولكن كيف تجرأ الولد الهزيل ريعو على طرد عبدالودود أفندى . الحق أن عبدالودود نفسه يتحمل جزءا من المسئولية . فهو الذى مد فترة الجلوس على القهوة من ساعتين إلى سبع ساعات وربما أكثر من ذلك أحيانا . ثم هو نفسه الذى تهاون فى مظهره بما لا يليق به كوكيل لقلم المستخدمين بمصلحة المساحة ، وما هى مصلحة المساحة ؟ إنها ليست كغيرها من المصالح كمصلحة القطن ومصلحة الكيمياء ومصلحة المجارى . إنها المصلحة التى تصنع خرائط البر المصرى كله وتحدد الحيازات والأملاك ومنذ أيام الباشا محمد على وحتى اليوم . كما أن موقعها اختير بدقة متناهية .. أمام مديرية الأمن لكى يتحقق لها الأمن الكامل بفضل وجود قوات الأمن وبلوكات النظام وعساكر الأمن المركزى وبفضل هذا الموقع المحترم أتيح للبسيونى أفندى مصادقة بعض ضباط الشرطة الشباب عندما كان مجرد موظف بالقلم ، ثم صادق ضباطا كبارا عندما صار وكيلا لقلم المستخدمين . وكان يجلس معهم على قهوة صمويل وهى قهوة محترمة ولها تقاليد عريقة ، فلم تكن تسمح بالجلوس عليها إلا لكبار الموظفين أمثاله وأصحاب الرتب المتوسطة فى الشرطة وتجار القطن . عيب عمك عبدالودود البسيونى إنه فرط فى تقاليده القديمة ، سمح لنفسه بالجلوس على القهوة لعدة ساعات طويلة ، ليس هذا فقط .. بل إنه سمح لنفسه بتخفيف ملابسه

فى حر الصيف ، فخلع الطربوش أولا ثم الكرافتة بعد ذلك ثم الصديرى ثم الجاكتة .وكان يذهب بالبنطلون والقميص . أما البنطلون فلم يكن يصلح لهذه المهمة الجديدة ، فهو بنطلون مقلم وشتوى وقماشه سميك ومشدود إلى كتفيه بحمالات ، أما القميص فهو بكم طويل وهو من قماش أشبه بالعبك .. سميك وخشن . أما الحذاء فله رقبة طويلة لأن البسيونى أفندى كان حريصا على عظام ساقه فى فصل الشتاء . وعاما بعد عام وفى هوجة الغلاء التى هبت على مصر كالإعصار ، اضطر عبدالودود أفندى إلى اختصار النفقات ، وكان من ضمن البنود التى اختصرها عبدالودود أفندى ، هى التعريفة التى كانت تذهب بقشيشا للواد ريعو . بعدها تغيرت طريقة ريعو فى المعاملة وأحيانا يلقى بطلب البسيونى أفندى على الترابيزة بطريقة غير لائقة. وأحيانا كان يتعمد إلقاء بعض محتويات الكوب على ملابس البسيونى ولا يكلف نفسه كلمة اعتذار واحدة . حتى عندما احتج البسيونى مرة على هذا الإهمال المتعمد من جانب الولد ريعو رد بطريقة غير مهذبة .. يعنى دلقنا ميه نار !! وكأن الشىء الوحيد الممنوع دلقه على الناس هى مية النار فقط ، أما كل ما عداها فهو مسموح به ولا جناح عليه! وفكر عبدالودود البسيونى أن يهجر قهوة كتكوت ولكن إلى أين ؟ إلى قهوة السروجى .. أعوذ بالله . إلى قهوة صمويل .. أظرط وأضل، وتذكر البسيونى الحاجة كاملة ، صاحبة البيت الذى حل ساكنا فيه منذ عشرين عاما . كانت الحاجة كاملة صاحبة أراض زراعية بناحية الهرم، فلما ضيقت الثورة الخناق على ملاك الأراضى ، باعتها وأقامت عمارتها على شاطىء النيل وأجرتها بخمسة وعشرين جنيها ، ولكن الثورة هبطت بالإيجارات فصارت عشرة جنيهات فقط ، ولعل هذه الحركة هى الحسنة الوحيدة للثورة . بعد ذلك كل ما فعلته الثورة هباب فى خراب . الولد ابن عمك عثمان بتاع السندوتشات أمام المصلحة . أصبح نقيبا لعمال مصلحة المساحة ، وصار عضوا بمجلس الأمة ، وسافر إلى

أوروبا في بعثة للمصلحة ، وعاد من هناك يجلس على القهوة التي يتردد عليها أسياده ، لا .. وايه ؟ صارت له سيارة بينما عبدالودود أفندي يستخدم الموتورجل ، ويضطر أحيانا إلى أن يحشر نفسه داخل الأوتوبيس . على كل حال ، الحاجة كاملة الخالق الناطق الحاجة ريا زميلة الحاجة سكينة بتاعة اسكندرية . ولكنها حريصة على وضع المساحيق وربط رأسها بالمنديل أبو اويه المزين بقطع الفضة اللامعة وهي منذ مات زوجها وهي حطة البسيوني في دماغها . زوجها كان رجلا متنفذا كرئيس لقلم المحضرين بالمحكمة الكلية ، والبسيوني وكيل قلم المستخدمين بالمساحة . لعل الحاجة كاملة لا تدرك عمق التغيير الذي حدث لهذه الوظائف بعد الثورة . زمان رئيس قلم المحضرين يعامل معاملة وكلاء الوزارة ، واليوم وكيل الوزارة نفسه ليست له أي صفة ، وبعضهم يتشعبط على سلم التروماي ، وربما اضطر إلى التعامل على النوتة مع البقال والجزار وبالرغم من التلميحات والإيماءات والإشارات إلا أن البسيوني كان شديد الحرص على أن يبدو صامدا وغير قابل للاحتواء . ولكن ريعو خرب الله بيته وكب زيته جعل البسيوني يعيد التفكير في أمر الحاجة كاملة . ولاشك أن هناك فوائد كثيرة سوف يجنيها البسيوني لو اقترن بالحاجة كاملة . أول شيء سيوفر الجنيهات العشرة إيجار الشقة ، وستعينه هذه الجنيهات على شراء بنطلون صيفي وحذاء خفيف وقميص بدون ياقة لاستخدام الصيف .. وزواجه منها سيمنعه من السهر على قهوة كتكوت وسيرد له هيبته التي اهتزت وكبرياؤه الذي ضاع . وربما وجد البسيوني عندها لقمة حلوة، طبخة مسبكة وحتة لحمة بالبصل وشوربة فراخ بالخضار .

ومن يدري ربما تسببت في ترميم العظام التي نخر فيها السوس ، والركب التي أصبحت تشخشخ مثل قضبان سكك حديد الدلتا . ولكن كيف يستطيع البسيوني أفندي إعادة مد حبال الود بينه وبين الحاجة

كاملة ، خصوصا وهوفى آخر لقاء عاملها بشيء من العنف، أو على الأقل من قلة الذوق. تسلمت طلبا من مأمور القسم ولكنها لم تنجح فى فك طلاسمه ، فسألت البسيونى أفندى أن يقرأ لها خطاب المأمور ، فطلب منها الخطاب فدعته أن يتفضل عندها بعض الوقت لأن الخطاب في الداخل . ولكنه اعتذر ، طلبت منه التمهل بعض الوقت حتى تأتى بالخطاب من الشقة ، ثم تركته على سلم البيت وهرعت إلى أعلى ، ثم عادت بعد فترة فلم تجد البسيونى أفندى . صحيح أنها تأخرت بعض الوقت، ولكن فيها إيه يعنى ؟ والناس لبعضها .. وإيه اللى جرى فى الدنيا يا ناس ؟ من يومها والعلاقة توترت بعض الشيء . ولكن تكفى إشارة بسيطة من جانب البسيونى فتعود العلاقة سمنة على عسل أو تزيد، انتهز البسيونى فرصة أول الشهر فصعد إلى الشقة ودق جرس الباب ، وعندما فتحت الباب فوجئت بالبسيونى شخصيا فتراجعت إلى الخلف بسرعة ، ثم عادت وقد غطت رأسها وقالت فى صوت منغم .. خطوة غزيرة اتفضل ، وتفضل البسيونى وجلس فى الصالون وعندما سألته عن المشروب الذى يفضله .. قال على الفور :

قهوة بإيدك الحلوة دى .

وفهمت الحاجة كاملة الإشارة فابتسمت وقالت:

من عينى ! أغرب شيء أن البسيونى كان يبحث لنفسه عن مبرر لصعوده إلى الشقة غير حكاية دفع الايجار ، ولكنها لم تسأله عن سبب صعوده ، وكأن صعوده إليها مسألة طبيعية كان يجب أن تحدث منذ فترة طويلة .

لم تستمر طويلا فترة التمهيد للحدث الأكبر ، فبعد فترة قصيرة تم الزواج بين الحاجة كاملة والبسيونى أفندى وكيل قلم المستخدمين بمصلحة المساحة .

مرت أيام كثيرة قبل أن يدرك أنه خرج من نقرة ووقع فى خندق عميق. البسيونى الذى كان يشعر بأنه فى حاجة إلى ممرضة، تحول هو نفسه إلى ممرضة للحاجة كاملة . اكتشف البسيونى بعد شهر

واحد من الزواج أن الحاجة هي مستودع لجميع الامراض . ثم إنه لم يتحول إلى ممرضة فقط ولكنه تحول أيضا إلى فراش للبيت ، هو الذي يذهب إلى الشهر العقاري وإلى الجمعية الاستهلاكية وإلى مكتب التموين وإلى السكان لجمع الايجار ، ثم إلى البنك لوضع حصيلة الإيجار هناك . وشعر البسيوني أن الذي أوقعه في هذه المحنة هو الولد الصعلوك ريعو لولا ريعو وسفالته لما سقط البسيوني في هذا المطب الذي لا خلاص منه على الاطلاق . واللي زاد وعاد أنه عندما قرر التمرد على هذا الحال المايل وخرج من البيت لم يجد إلا قهوة كتكوت ليجلس عليها . لا يعرف البسيوني كيف قادته قدماه إلى القهوة وإلى الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه بالقرب من مجلس الأدباء . هؤلاء الأدباء هم وحدهم من دون زبائن قهوة كتكوت الذين لم يتغير موقفهم من بسيوني سواء كان في الخدمة أو خارجها ، سواء كان بملابسه الكاملة أو بالبنطلون والقميص .

وأحدهم زجر الولد ريعو ذات مرة عندما ضبطه وهو يسخر من بسيوني . هذا الأديب للأسف الشديد بسيوني يعرف صورته ولكن أسمه يغيب عنه دائما .

جلس بسيوني كعادته وصفق للولد ريعو ، ولكن الولد اللئيم ريعو أشار له بيده وقال صائحا :

بطلوا التصقيف والحاجات دي، مراكز القوى خلاص وقعت ونايمة دلوقت ع الأسفلت .

قالها ريعو وضحك واستغرق في الضحك وضحك معه بعض الجالسين على القهوة وتمنى لو كان معه مطوة قرن غزال ليغرزها في صدر ريعو، وكان يتمنى قبل ذلك أن يكون معه قلب شجاع يعينه على ارتكاب مثل هذه الجريمة . هذه الحياة لم تعد تستحق أن يحياها الإنسان .

وكيف وهو بين نارين، نار ريعو ونار الحاجة كاملة . ولكن نار ريعو هي نار مع فضيحة بجلاجل ، هي نار قطاع عام ومشاع للجميع،

واللى ما يشترى يتفرج . أمـا نار الحاجة كاملة فهى قطاع خاص ، نار ملاكى ، نـار يتقلب البسيونى على جمـرها ، ويتفـرج عليهـا وحده ، ويعـانى منها وحـده ، نار كتـيـمى وسكيتى .. ولا من شـاف ولا من درى. وإذا كـان الموت هو الـحل الوحيـد لهـذا الحـال الذى هو فيـه ، فـالبقـاء مـع الحاجـة كاملة هـو موت مع وقف التنفـيذ ، هو مـوت مع الستر، والستر هو أعظم هدية يقدمها الله لعباده الطيبين .

وخرج البسيونى من قـهوة كتكوت راكضا ولم ينس أن يلقى نظرة ذات معنى على الولد ريعـو وعلى المعلم كتكوت أيضـا وهو جالس فى مكانه منذ بداية الحرب العالمية الأخيرة . وأسرع البسيونى الخطى إلى شارع المرسى حـيث يقيم . وصعد السلالم بتثـاقل شديد حتى وصل إلى الدور الأخيـر . وطرق الباب عـدة طرقات حتى فـتحت له الحـاجة كاملة ، فأخذ طريقه من الباب إلى الغرفة، وخلع ملابسه وتهيأ للنوم . ولم يجد لديه رغبة فى الرد على السؤال الذى وجهته له الحاجة كاملة . ولم يمض وقت طويل حتى استغرق فى نوم عميق عميق عميق .

وفى المساء كان ثمة شادر متوسط أمام بيت الحاجة كاملة والشيخ سلومـه يقرأ القرآن مـن ميكريفون مشروخ ، وبعض سكـان الشارع يجلسون فى خشوع يستمعـون إلى القرآن ويشربون القهوة وبعضهم يستحلب قطع الأفيون . لم يكن أحد من المعزين يعرف المرحوم ، وإن كانوا جـميعا يعـرفون اسـمه .. البسـيـونى ولكن لم تكن هناك صلة حقيقية تربط بينه وبين أحد منهم . المنظر الذى يستحق التسجيل ، هو منظر الولد الحقير ريعو وهو يقف على باب السـرادق يستقبل المعزين ويتقبل منهم واجب العزاء ، بينما كان المعلم كتكوت يجلس على المقعد المجاور لدكـة المقرىء ، ولم ينس المعلم كتكوت أن يشـير للولد ريعو بين الحـين والآخر مـؤكـدا عليه ضـرورة الالتـزام بواجبـات مركـزه كمندوب عن أهـل الميت الذى لا أحد يعـرف أين هم ؟ ولا من هم على وجه التحديد ؟

٢

القطط السوده !

خطاب افندى مدرس إلزامى كانت له شهرة واسعة فى الجيزة بسبب أشعاره الحماسية التى كان يلقيها بمناسبة وبدون مناسبة فى أغلب الأحيان ، وهى أشعار حماسية ووطنية ولكنها فقيرة الموهبة وخالية من الفن . وكان الجرسون ريعو هو أعظم مشجع للشاعر خطاب، عندما كان خطاب افندى يقفز فجأة واقفا داخل القهوة ثم يلقى قصيدته التى هى غالبا بدون معنى وبدون هدف، أشعار كان يستخدمها فى المعارك الانتخابية ضد معارضى حزبه، الذى كان يفخر بالانتساب إليه وهو الحزب السعدى ، وهو حزب أقلية كانت له قيادة ولم يكن له قاعدة أو جماهير من أى نوع .

ولكن الحزب إياه كان يقفز إلى السلطة عندما يغضب الملك على حزب الوفد ويطرده من السلطة ، عندئذ ينجلى خطاب أفندى ويلمع ويجوب الجيزة كلها يلقى أشعاره الفخيمة على الناس سواء رغبوا فى سماعها أم انصرفوا عنها .

وكان خطّاب أفندى فى ظل حكومة السعديين يمارس حياته بين الناس كواحد من كبار المسئولين ، فكان يقوم بفك أسر بعض المواطنين الذى احتجزهم البوليس على سبيل التحرى ، ويضمن بعض التجار الذين وضعوا فى أقسام البوليس للعرض على النيابة بسبب مخالفتهم للتسعيرة . وكان خطاب أفندى يتلقى بعض الهدايا نظير هذه الخدمات ، وكان ضباط البوليس يعاملونه باحترام ويتقون شره لصلته

ببعض وزراء الحكومة . وكان له بيت شعر مشهور يحشره في كل قصيدة وكان يهاجم فيه المعارضين للحكومة :

صم بكم قوم عجب قطط سود ولها ذنب !

وكانت الجماهير التي يتصادف وجودها يصفقون بشدة ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل خطاب افندي يحشر البيت إياه في كل قصيدة ، كما أن الواد ريعو كان يداعب خطاب أفندي أحيانا قائلا : من زمان ماسمعتش القطط السودة . ولكن خطاب أفندي كان يواجه أياما صعبة عندما يخرج الحزب السعدي من السلطة ، ولذلك كان يصدر قرار بنقله إلى مدرسة في ريف الجيزة ، فيختفي رغم أنفه من قهوة كتكوت ، لأن مشواره إلى المدرسة الريفية كان كفيلا بهد حيله ، ولكنه كان يعاود الظهور يوم الخميس ويوم الجمعة ، ولا يكف عن ترديد أشعاره ضد الحكومة القائمة إذا كانت ضد الحزب السعدي . وفي المرة الأخيرة التي جاء فيها الوفد إلى السلطة اختفى خطاب تقريبا من الجيزة ومن قهوة كتكوت ، ولكنه عاد إلى الظهور بعد حريق القاهرة ومجيء وزارة علي ماهر ؛ ثم وجد وسيلة استطاعت إعادته إلى مدرسته القديمة في شارع سوق البرسيم في الجيزة ، ولكنه لم يستطع الحصول على ميزات أخرى غير النقل فلم يكن بإمكانه التوسط لدى قسم البوليس للإفراج عن أحد ، كما أن علي ماهر باشا لم يكن من أعداء الحزب السعدي ، والبلد كلها كانت تعيش في ظل الأحكام العرفية بعد حريق القاهرة ، وكان السهر ممنوعا والمحلات العامة تغلق أبوابها قبل التاسعة مساء . كانت أياما عاصفة بلاشك ، ذهب علي ماهر وجاء أحمد نجيب الهلالي، حكومة في نظر خطاب أفندي بلا لون وبلا رائحة، ولكنها أعطت مجالا لخطاب أفندي عندما رفعت شعار التطهير ، فانطلق يؤلف أشعارا في ضرورة تطهير البلد من الخونة والمفسدين ، وركز حملته على النحاس باشا ، ولكن بعض الشباب الوفدي المتحمس تعقبه ذات مساء وضربه علقة ساخنة .

واستثمر خطاب أفندي الحادث فنام على سريره بالمستشفى ،

ورفع قضية أمام المحاكم يطالب بتعويض مالى كبير ، متهما النحاس باشا شخصيا بالتحريض على ضربه . ولكن فجأة وخطاب أفندى فى المستشفى وقع حادث ليس له شبيه فى تاريخ مصر ، فقد قامت ثورة ٢٣ يوليو وتولى الجيش إدارة شئون البلاد ، وجاء محمد نجيب رئيسا للجمهورية ، وأعتقد رواد قهوة كتكوت أن عصر خطاب أفندى انتهى ولن تقوم له قائمة بعد ذلك . كان الشاب الذى تولى أمر هيئة التحرير بالجيزة ضابطا سابقا بالقوات المسلحة ، وكان برتبة اليوزباشى عندما ودع الحياة العسكرية واشتغل بالعمل السياسى فى الهيئة، ولم يكن له سابق معرفة بالعمل السياسى أو التعامل مع الجماهير ، ولكنه كان مؤمنا بالثورة. ومتحمسا للتغيير . ولكن التغيير إلى ماذا ؟ وإلى أين ؟ كانت مهمة صعبة للغاية، ولكن عزاءه الوحيد أن الناس كانت متحمسة للثورة ولديها الاستعداد للالتفاف حول رجالها.. واحتل الشاب الطيب مكتبا كان يتبع المجلس البلدى ، ونصحه البعض بإقامة مؤتمرات جماهيرية ، واستفسر عن الوسيلة التى تؤدى إلى عقد هذه المؤتمرات ، فنصحه البعض بإرسال بطاقات دعوة لبعض الشخصيات فى الجيزة ، ونصحه البعض الآخر بالقيام بجولة فى أنحاء الجيزة للتعرف على الجماهير . ولكنه اختار الاقتراح الاول بإرسال بطاقات الدعوة ، وحددوا الموعد وزينوا المقر ، ولكن المنظر لم يكن يدعو إلى الاطمئنان ، لبّى الدعوة عدد من أصحاب محلات البقالة ورئيس المجلس البلدى وبعض الصياع الذين وجدوها فرصة لشرب الشاى وتدخين السجاير .

وجلس مندوب هيئة التحرير الشاب يشرح للناس أهداف حركة الجيش ، ولم يفهم أحد شيئا على الاطلاق . ويبدو أن مندوب الهيئة لم يكن يفهم شيئا هو الآخر، وجلس المندوب قلقا على مستقبل الهيئة ، ولكن قلقه على مستقبله السياسى كان أكبر . وخيم الصمت على الاجتماع ، فلم يكن للحاضرين أى رابطة من أى نوع من قبل .

وربما لم يلتقوا فى أى مناسبة قبل ذلك. ولم يعرف مندوب الهيئة

الشاب كيف يتصرف لمواجهة هذه الحالة من الاحباط والخيبة .. وفجأة انتفض أحد الحاضرين كالإعصار ، وألقى قصيدة عصماء وسرعان ما عرف الناس صاحبها عندما راح يصرخ بكل قوة ببيت الشعر الشهير : قطط سود ولها ذنب ..! وعندما انتهى خطاب أفندى من قصيدته العصماء، انطلق مندوب الهيئة نحوه واحتضنه بشدة ، وأمسكه من يده وظل ممسكا بها حتى انفض الاجتماع . ودعاه إلى العشاء ، ولم يتركه إلا عند باب منزله ، وبالرغم من إلحاح خطاب افندى على النزول قبل البيت بمسافة ، إلا أن مندوب الهيئة الشاب اقسم ألف يمين أن لا يتركه إلا عند باب البيت ، ولو كانت الظروف تسمح لبقى معه حتى الصباح. ولكنه تواعد معه على اللقاء عصر اليوم التالى فى مقر الهيئة .. عندما خرج خطاب من الاجتماع ، كان قد أصبح المسئول التثقيفى للهيئة . ولما كان المقر لا يسمح بوجود مكتب للأستاذ خطاب ، فقد اتخذ من قهوة كتكوت محلا مختارا له .. وكان مندوب الهيئة الشاب يتردد عليه أحيانا ، ثم أصبح يلازمه كل ليلة ويستشيره فيما يجب عليه أن يفعله من أجل تحريك الجماهير وحشدها ، ثم أصبح يعتمد عليه فى كتابة الخطب المناسبة ليلقيها فى المناسبات الهامة . وصارخطاب أفندى هو ممثل حركة الجيش فى الجيزة ، والتف حوله أصحاب الحاجات ، وعاد لخطاب أفندى نفوذه القديم ، يتوسط للناس لإخراجهم من قسم البوليس ، ويتوسط لهم لإلحاقهم بالوظائف لزوم أكل العيش .. وكان المعلم كتكوت شديد الذكاء لدرجة أنه أعفى خطاب أفندى من ثمن المشروبات ، عشان خاطر البيه الضابط الشاب الذى صار مندوبا لهيئة التحرير ، ثم تطورت الأمور وذهبت بعيدا إلى درجة أن الضابط الشاب مندوب الهيئة كان يستفسر عن الأهداف الحقيقية للهيئة ، وكان خطاب أفندى لا يبخل على الضابط الشاب بنصائحه واقتراحاته.. وأقنعه بأن مصلحة العمل الجماهيرى والسياسى فى الجيزة أن يكون لقهوة كتكوت الحق فى السهر حتى الصباح .

وبالفعل بذل الضابط جهدا مشكورا حتى حصل لقهوة كتكوت على هذا التصريح .

وبالطبع لم يبخل المعلم كتكوت على خطاب أفندى ، فأجرى عليه راتبا شهريا خمسة جنيهات عدا ثمن المشروبات . فلما كثرت الطلبات وتضاعفت المشاريب ، اشترط المعلم كتكوت على خطاب أفندى أن يعفى من المشروبات الضيوف الذين يجلسون على مائدة خطاب أفندى، أما الذين يقصدونه لأشغال أو مصالح ويجلسون بعيدا عنه فيدفعون ثمن مشروباتهم .. ولم يمانع خطاب أفندى بل رحب بالفكرة، واقترح اقتراحا مفيدا هو أن تضاعف القهوة ثمن مشروبات أصحاب الحاجات والمصالح ، بشرط مضاعفة المكافأة المالية لخطاب أفندى إلى عشرة جنيهات، وانتهز المعلم كتكوت الفرصة فبالغ فى ثمن المشروبا ، ولكن الزبائن كانوا يقبلون بالأثمان التى يحددها المعلم كتكوت ، فيكفى أنهم يلتقون بخطاب أفندى ويحصلون على كروت توصية ، وهى كروت البيه الضابط الشاب مندوب هيئة التحرير بالجيزة .. وكان لها مفعول السحر فى البداية ، ثم هبط تأثيرها بعد ذلك ، ثم تلاشى التأثير تمام .. ومع ذلك لم تنقطع وفود أصحاب الحاجات عن التردد على قهوة كتكوت، ولم يتوقف خطاب أفندى عن ترديد الوعود بكروت التوصية مع علمه بأنها أصبحت غير ذى موضوع.

المهم أن الفائدة تتم بحضور الوفود وطلب المشاريب ودفع ثمنها للمعلم كتكوت ، ثم صرف المكافأة الشهرية «لخطاب أفندى» .

أخيرا طابت الحياة واستقرت لخطاب أفندى ، فالثورة باقية إلى نهاية الدهر ، والبيه المندوب شاب لايزال ، وسيبقى فى منصبه إلى نصف قرن من الزمان .. لم يدرك خطاب أفندى أن الحياة ممكن أن تستقر ولكنها لا تستمر على حال واحد ، ولو حدث هذا لفسدت الحياة وربما انتهت أيضا . فجأة اختفى الضابط الشاب ، فلم يعد يراه أحد فى الجيزة ، حتى مكتب الهيئة أخلَوه، انطفأت أنواره وغاب حراسه ، وسمع خطاب أفندى أن الهيئة فشلت فى تحقيق أهدافها ،

ولذلك سيجرى تصفيتها وإغلاق أبوابها وتسريح أعضائها . هذه إشاعة وحق الله يا خطاب أفندى ، فالهيئة كانت آخر انضباط والجماهير التفت حولها بدليل تواصل البشر التى تقصد قهوة كتكوت لمقابلة خطاب أفندى . ولكن هكذا المصريون لا يستقرون على قرار ولا يجمعون على رأى واحد. وهم أهل هدم لا أهل بناء ، وقد حدث هذا من قبل للحزب السعدى ، رغم أنه كان حزبا جماهيريا ليس له نظير !! وتصور خطاب أفندى أنها مجرد إشاعة، وربما غمة لا تلبث أن تزول ، ولكن غياب الضابط الشاب أقلقه بشدة ، ثم تضاعف قلقه عندما بدأت الوفود التى تقصد القهوة فى الانحسار ، ثم ما لبثت أن تضاءلت ثم تلاشت.

وعلى الفور أمسك المعلم كتكوت يده فلم يعد يدفع الهدية الشهرية للأفندى خطاب، والولد ريعو بدأ يقل أدبه على خطاب أفندى وعلى البقية الباقية من الذين كانوا يقصدونه للزيارة والسلام . ولكن خطاب أفندى لم يتعلم الدرس ، وثار وغضب وطالب الجميع بضرورة احترامه وتوقيره ، وألمح للمعلم كتكوت بأنه سينتقم منه انتقاما رهيبا عندما تعود المياه إلى مجاريها .. وأقسم أنه عندما يعود الزمان إلى الابتسام سينقل نشاطه السياسى والجماهيرى إلى قهوة عبده الانجليزى .. ومرت شهور طويلة ، وجرت مياه كثيرة تحت كوبرى عباس قبل أن يكتشف خطاب أفندى أن هيئة التحرير قد جرى عليها ما يجرى على كل شىء فى الحياة ، وأن الاتحاد القومى حل محلها، وعندما شاع الخبر وذاع ، احتدمت الخلافات بينه وبين الولد ريعو والمعلم كتكوت ، وذات خناقة قامت بينه وبين الولد ريعو اضطر المعلم كتكوت إلى مغادرة مكانه بجوار النصبة ، وأغلظ القول لخطاب أفندى واضطر المعلم لدفعه دفعة قوية خارج القهوة . وعندما تدخل البعض لفض الاشتباك ولفتوا نظر المعلم كتكوت إلى سابق عهده . ردّ عليهم المعلم كتكوت قائلا : سيبوكم م الكلا الفاضى ده، خطاب راحت عليه زى ما راحت على بديعة !!

٤

عــــودة خـطــاب !

لم تتحقق تنبؤات المعلم كتكوت ، فسرعان ما عاد خطاب أفندى إلى الاتحاد القـومى كان الاتحاد القومى خـطوة أكثر وضوحـا من منظمة التحـرير كان اتحـادا بين جمـيع الطبقـات العمال وأصـحاب الأعـمال الفلاحين وأصحاب الأطيان المستأجرين وأصحاب البيوت، كان ائتلافا تقدره السلطة ويسـيطر على المراكـز الحساسة فـيه الضبـاط الأحرار وبالرغم من أن عودة خطاب أفندى كـانت متواضعة لأن قـيادة الاتحاد فى الجيـزة كانت فى يد أحد أبناء الـعائلات الثرية فى المـدينة ، وكان على معـرفة بالناس وبأقـدارهم ، ولذلك استـقبل خطاب أفندى بفـتور ولكن من حـسن حظ خطاب أفندى أنـه كان زمـيـلا للرجل الثـرى فى الحزب الســعدى ولذلك خـصص لـه مكتبا صـغيرا بالقـرب من الباب.. ولما كان خطاب أفندى قد عمل فترة من الوقت مدرسا فى بعض القرى القريبة من الجـيزة ، فقد كانت حجـرته الصغيرة تضيق أحيـانا بالعمد والمشـايخ، وهو الأمر الذى جعله يرتفع فى عـين المسئول عن العمل السـياسى بالجـيـزة ، لدرجة أنه كـان يستـعـين به فى عقـد الندوات والمؤتـمرات فى القـرى المحيطـة بالجيـزة ، وهى ندوات كانت أشـبه بسهـرات طيبة فى بيـوت العمد والمـشايخ ، وكان الحـوار يدور حول موائد الطعـام الدسم ، حيث كانت المـوائد الممدودة تضم كل خـيرات الريف .

ولكن عودة خطاب افندى كان لها صدى بعيد فى قهوة كتكوت ، وكان أول المهنئين هو المعلم كتكوت نفسه والولد ريعو ، وفى أول زيارة لهما فى مكتب خطاب افندى ، انحنى المعلم على يد الأفندى فى محاولة لتقبيلها ، ولكن الأفندى سحب يده مستغفرا ربه ، واكتفى بغمز المعلم بطريقة ساخرة :

- مش أنا يا معلم اللى راحت عليه زى بديعة ؟!

ورد المعلم قائلا :

- يا باشا ما تدقش على الكلام خصوصا ساعة غضب ، والشيطان شاطر وربنا يجازى اللى كانوا السبب .

وتساءل خطاب أفندى:

- ومين همه دول ؟

وصاح الولد ريعو بدون وعى :

- قطط سود ولها ذنب !!

وبدا على خطاب أفندى أنه قبل اعتذار المعلم كتكوت ، ولكنه اعتذر عن زيارة القهوة لأنه مشغول حبتين ، ووعد بالتردد على القهوة فى فترة قادمة .

وعندما ضاقت حجرته الصغيرة بزواره من العمد والأعيان ، طلب إعداد مكتب أكبر ، ولكن المسئول اعتذر لخطاب قائلا له : عد غنمك يا جحا . وانتهزها خطاب فرصة فطلب السماح له باتخاذ قهوة كتكوت محلا مختارا له ، ووجد المسئول فى قهوة كتكوت حلا للمشكلة فوافق على الفور . عادت أيام خطاب أفندى فى قهوة كتكوت مع اختلاف فى الصنف ، كان المترددون عليه من العمد والمشايخ وأصحاب العزب ، وكانوا أثرياء فعلا وأسخياء أيضا . مما جعل الولد ريعو لا يبتعد كثيرا عن المكان الذى يجلس فيه خطاب أفندى . وأخذت الاتفاقية القديمة طريقها إلى التطبيق مع فروق شديدة. المعلم يرفع السعر على المترددين الاثرياء ، وخطاب أفندى يقبض المعلوم شهريا ، وكان

المعلوم لا بأس به فقد وصل إلى أربعين جنيها شهريا !
وهكذا حلقت السعادة فوق رءوس الجميع .. خطاب أفندى والمعلم كتكوت والولد ريعو . ولكن على رأى المثل .. يا قعدين فى حالكم .. المصايب جيالكم ! فجأة وقع حادث لم يكن على البال . وقع الانفصال بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة . واعتكف المسئول عن الاتحاد القومى فى منزله ، ولاح فى الجو أن الرجل انتهى سياسيا وأنه سيلزم بيته إلى آخر العمر . ومع ذلك لم يحدث شىء يعطى مؤشرا عن جوهر التغيير مستقبلا ، وإذا كان الرجل المسئول قد لزم بيته فالاتحاد القومى ظل قائما ، والصحف تكتب اسم الرجل على أنه المسئول الأوحد عن الاتحاد القومى . وعلى مستوى خطاب فقد استمرت القعدات على قهوة كتكوت ، كما واصل رحلاته مع مسئوله المحلى إلى قرى الريف حيث الأرز المعمر والفراخ البلدى والبط المزغط وكان خطاب أفندى يبدى حماسا شديدا للمسئول الذى لزم بيته ، وخاض معارك رهيبة ضد الذين كانوا يتعرضون لسيرته بالسوء ، وذات وليمة فى بيت أحد العمد كان هناك شاب يبدو عليه أنه من طلبة الجامعة ، أكد أن المسئول الكبير فصلوه بالفعل وأن البحث جار عن رئيس جديد .
وانبرى خطاب أفندى فسخر بشدة من الشاب وقال له مستنكرا :
– يفصلوه .. ليه ؟ هو طالب زيك . انت عارف انت بتتكلم عن مين ؟
ونظر الشاب بغضب إلى خطاب أفندى وقال له :
– أنا بتكلم عن السيد أمين الاتحاد القومى .. ممنوع الكلام يعنى ؟
ورد خطاب متعجبا :
– لا مش ممنوع ، بس عيب . لأن دا راجل مش صغير ، دا عضو قيادة الثورة ، ووزير أكثر من مرة ، ورئيس وزارة الإقليم الجنوبى .. مش لعبة ، ثم دا لو خرج من السلطة هتحصل كارثة .
ورد الشاب قائلا فى هدوء :
– نفس الكلام اللى انت قلته عن أمين هيئة التحرير . وحصل إيه ؟

خرج من السلطة ولا حاجة .

وزمجر خطاب قائلا :

– خد بالك ومالوش لازمة تغلط انت بتتكلم عن أشرف الناس .. فاهم ؟

وتدخل أحد العمد الحاضرين وقال لخطاب أفندى :

– حيلك شوية يا خطاب أفندى ، لفندى ما غلطش ، ثم انت محموق ليه كده ؟ دا حتى أنت كنت سعدى زمان ، وكان ربنا فوق وعبدالهادى باشا تحت .. انت نسيت يا خطاب أفندى ؟

بالرغم من السهرة الطيبة والطعام الطيب ، إلا أن خطاب أفندى شعر بالضيق من الحديث الذى دار عن الثورة ، وخصوصا حديث الشاب الذى يبدو أنه من طلبة الجامعة ، وهناك شكوك بأنه شيوعى من بتوع روسيا . لكن ماذا لو صح كلام الولد الطالب وطردوا سيادة الأمين العام من منصبه وأصدروا قرارا بحل الاتحاد القومى كما حلوا هيئة التحرير من قبل ؟ كانت ضربة قاسية لخطاب أفندى عندما أذاع الراديو نبأ استقالة الرجل المسئول عن الاتحاد القومى . مع أن خطاب أفندى كان قبل يوم واحد فى زيارة هذا المسئول فى بيته ، وبالأمس فقط كان الرجل مصرا على الدفاع عن موقعه ، مع تمسكه بأن الاتحاد القومى برىء مما ينسب إليه من أخطاء ، وأنه إذا كانت هناك أخطاء فهى من فعل الغير . ما الذى حدث حتى يغير الرجل موقفه ويجعله يذهب بعيدا إلى حد الاستقالة ؟ ثم كيف يستقيل هكذا فجأة دون أن يعطى أنصاره فرصة لتدبير أمرهم ؟ شعر المعلم كتكوت بأن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ، ولكنه لم يكرر ما حدث منه فى المرة السابقة حرص على أن يجلس مع خطاب أفندى حتى عندما انقطع سيل الزائرين الذين كانوا يقيمون فى المقهى ويلتفون حول خطاب أفندى، ليس هذا فقط ولكنه ذهب أبعد من ذلك لتأكيد موقفه الجديد ، حرص على أن يسدد الاتاوة الشهرية بالرغم من انقطاع سيل الزوار ونضوب

الموارد لقد علمته التجارب أن يفكر طويلا قبل اتخاذ خطوة متسرعة وغير محسوبة وهذا الرجل الشيطان خطاب أفندى قد يكون سيئا وملوثا ولكنه مثل القطط بعدة أرواح . وهو بالتأكيد سيعود إلى الواجهة مرة أخرى مهما تعددت وتغيرت أسماء التنظيمات . حتى الولد ريعو حرص على إحاطة خطاب أفندى بكل مظاهر التوقير والاحترام .

وبالرغم من ذلك . اختفى خطاب أفندى من قهوة كتكوت عندما تأكد من أن الاتحاد القومى قد لحق بهيئة التحرير . وجاء الاتحاد الاشتراكى على أنقاض سلفه ولكن بوجوه جديدة ، وكان مسئول الجيزة هذه المرة أستاذا جامعيا لا يعرف من الجيزة إلا قهوة سان سوسيه الواقعة على جانب ميدان الجيزة الرئيسى ، ولا يعرف من أهلها إلا زملاءه من أساتذة الجامعة . وطالت غيبة خطاب أفندى ، فمن الناس من زعم أنه هاجر من الجيزة كلها وعاد ليعيش بقية حياته فى قريته بالمنوفية . ومنهم من ادعى أنه يقضى عقوبة طويلة فى السجن فى قضية فساد . وبالرغم من غموض مصير خطاب أفندى إلا أن المعلم كتكوت بقى محافظا على موقفه الطيب من خطاب أفندى . وكان موقفه هذا بناء على شعور داخلى بأنه حتما سيعود يوما ما إلى الواجهة ، وأن لياليه فى قهوة كتكوت ستعود بالتأكيد طالما بقى خطاب أفندى على قيد الحياة .

ولكن أين اختفى خطاب أفندى ؟ أهاجر إلى قريته أم يقضى أيامه فى السجن أم توفى إلى رحمة الله ؟ ذات صباح جاء إلى قهوة عبد الله عمدة من عمد القرى القريبة من مدينة الجيزة ، وكشف عن سر اختفاء خطاب أفندى . لقد تزوج خطاب أفندى فتاة ريفية عانسا هى شقيقة شيخ قرية متيسر وأحواله المالية على ما يرام . وكان شيخ البلد قد تعرف على خطاب أفندى فى إحدى جولاته فى نطاق نشاط الاتحاد القومى . وتوطدت أواصر الصداقة بين شيخ البلد وخطاب ، وفى إحدى الزيارات التقى صدفة بأخت شيخ البلد . كانت قريبة من عمره ،

ربما في الخمسين أو تجاوزتها بقليل ، ولكنها بالرغم من ذلك كانت مليحة وصبية إلى جانب أنها كانت وارثة لعشرين فدانا من أجود الأطيان . وعندما عرض خطاب أفندى على شيخ البلد رغبته في الزواج من أخته زينب ، رحب الشيخ كثيرا ولكنه طلب مهلة لاستشارتها ، وتمت مراسم الزواج سريعا ، وطلب خطاب أفندى نقله من مدينة الجيزة إلى المدرسة التي تقع في زمام قرية أصهاره . وذاق خطاب أفندى طعم السعادة الحقيقة ربما لأول مرة في حياته . طعم البط المزغط والوز الغارق في شحمه مما ضاعف من متعة خطاب في الحياة لدرجة أنه فكر في الاستقالة من التدريس ليتفرغ لإدارة أعماله والاستمتاع بالحياة ، ولكنه قبل أن يقدم على تنفيذ فكرته وقع حادث من تدبير القدر جعله يصرف النظر عن تنفيذ ما عزم عليه . أقيم في القرية مهرجان سياسي كبير لقيادة الاتحاد الاشتراكي بالمحافظة . وأقام العمدة سرادقا كبيرا لهذه المناسبة . وأقبل جميع عمد ومشايخ البلاد المحيطة لاستقبال أمين الاتحاد الاشتراكي أستاذ الجامعة الذي اكتسب شهرة واسعة قبل أن ينخرط في العمل السياسي ، ولفت نظر أستاذ الجامعة حركة خطاب أفندى الواسعة وعلاقاته الوثيقة بجميع الحاضرين من عمد وأعيان الريف . وأدهشه خطاب أفندى عندما بدأ يلقي خطابه على الحاضرين ، لغته سليمة ولديه مقدرة فذة على مخاطبة الفلاحين ولم يملك أستاذ الجامعة نفسه فراح يصفق بشدة عندما اختتم خطاب أفندى خطابه ببيت الشعر الشهير : قطط سود ولها ذنب. (لا حول ولا قوة إلا بالله) هكذا هتف أستاذ الجامعة في سره بعد أن انتهى خطاب أفندى وتساءل بينه وبين نفسه : ولماذا يبتعد هذا النوع عن العمل السياسي ، ولماذا لا يوجد رجل مثل خطاب أفندى في قيادة الاتحاد الاشتراكي بالجيزة ، لابد أن هناك خللا في تركيبة التنظيم ولابد من إعادة النظر في هيكل التنظيم لكي يقترب أمثال خطاب أفندى من الصفوف . وبعد أيام كان خطاب أفندى يشق طريقه

بصحبة صهره شيخ البلد إلى مدينة الجيزة لمقابلة أمين الاتحاد الاشتراكي ولكنه لم يشأ أن يذهب إليه مباشرة ، قصد أولا قهوة كتكوت ليستريح قليلا ويشرب كوبا من الشاى . ولكى يبشر المعلم كتكوت بعودته إلى سابق عهده ، ويطمئنه بأن الأحوال ستعود كما كانت ، وربما أفضل مما كانت .

شعر المعلم كتكوت بالزهو لأن تنبؤاته كلها كانت هذه المرة صحيحة وهاهو ذا خطاب أفندى بلحمه وشحمه يسعى بقدمه إلى مكانه الذى شغله في كل الأحوال وغدا ستضاء الأنوار حتى الفجر فى قهوة كتكوت ، ستزدحم عن آخرها بروادها من العمد والأعيان ومن الفلاحين أصحاب الحاجات : وكان الولد ريعو أكثر الجميع حركة وأشدهم سرورا . أشرف بنفسه على إعداد الشاى الكشرى لخطاب أفندى وضيوفه . وقضى وقتا طويلا فى تنظيف الشيشة قبل أن يقوم بتقديمها إلى صهر خطاب أفندى ، ورفض المعلم كتكوت تقاضى ثمن المشروبات . واعتبر وجود خطاب أفندى فى القهوة هو جائزته التى لا تقدر بثمن ، حتى الولد ريعو رفض الجنيه الورق الذى قدمه شيخ البلد له على سبيل البقشيش . وشعر خطاب أفندى بالارتياح ، وأفرز هذا الاستقبال الحافل من جانب المعلم كتكوت وريعو نوعا من التفاؤل فى نفس خطاب أفندى . لابد أن الحياة ستبتسم أخيرا لخطاب أفندى ولابد أن الاتحاد الاشتراكى سيكون مختلفا عما سبقه من تنظيمات أو بالتأكيد لن يلقى نفس المصير الذى لقيه ما سبقه من تنظيمات . والغد سيكون يوما آخر ، عندما يجلس خطاب أفندى مع أستاذ الجامعة .. ليتفقا على أسس التعاون بينهما فى قادم الأعوام .

٥ الطيور المهاجرة !

عادت الأيام الحلوة من تاني وعاد خطاب أفندى إلى الواجهة ولكن فى ثوب قشيب .. خطاب أفندى لم يعد هو الأفندى الجربان المقشف الذى عرفه الناس من قبل . ولكنه صار من الأعيان يملك أرضا فى ريف الجيزة ، وله أصهار ياكلون اللحمة نية ، وهو لم يعد مجرد رقم فى حزب السلطة ، ولكنه أصبح دينامو مكتب الاتحاد الاشتراكى فى الجيزة وأمين المكتب رجل مثقف وأستاذ جامعى ولكن حركته بطيئة ، وعلاقته بالجماهير محدودة ، وهو يجيد التفكير ووضع البرامج ولكنه لا يجيد حشد الجماهير أو تحريكها ، وأصبح خطاب أفندى هو المسئول الحقيقى فى المكتب ، فهو همزة الوصل بين مكتب القسم ، وأمين المحافظة وهو فى أحيان كثيرة يجتمع مع أمين التنظيم مندوبا لأمين القسم، وأحيانا يكلفه كبار المسئولين بمهام لا يعرف أمين القسم عنها شيئا .

اطمأن خطاب أفندى للمستقبل أما الحاضر فالحمد لله الحمد لله ، لم يعد خطاب أفندى فى حاجة إلى الفردة التى كان يفرضها على المعلم كتكوت . وانقلب الحال فأصبح يغدق بشدة على « الوله ريعو » وأصبح المعلم كتكوت يبدى الاحترام الكامل لخطاب أفندى ، وهو احترام نابع من قلب المعلم بسبب سلوك خطاب أفندى فى الفترة الأخيرة ، لقد أصاب التغيير خطاب أفندى ، فأصبح يخدم الناس بدون

مقابل ، وأصبح يقيم الولائم بين الحين والآخر .

تبدلت الأحوال في عصر الاتحاد الاشتراكي ، فلم يعد خطاب أفندي في حاجة لأن يمد يده انتظارا لمبلغ من هنا ومبلغ من هناك. لقد فتحها الله عليه من واسع . استطاع باتصالاته الجديدة أن يحصل على توكيل شركة الدخان والسجاير في المركز الذي يقيم فيه أصهاره . وخطاب أفندي ليس من الغباء لكي يحصل على التوكيل باسمه ، لقد حصل عليه باسم شقيق زوجته وهو مزارع نشيط ورجل طيب مشهود له في جميع الأوساط وكان الدخل الذي يحققه التوكيل يكفي خطاب للانفاق على أسرته ، بالإضافة إلى مدخرات تكفي لشراء قطعة أرض جديدة يضيفها إلى أملاكه التي رفعته إلى مصاف كبار ملاك الريف . الاتحاد الاشتراكي هو أفضل تنظيم ثوري شهدته مصر منذ فترة طويلة ، وحظ الاتحاد الاشتراكي حسن لأن أقطابه اهتدوا إلى خطاب أفندي ليكون لسان حال الاتحاد الاشتراكي وترجمانه في بلاط الشعب المصري ، وبالرغم من اطمئنان خطاب أفندي للمستقبل ، وشعوره بالراحة للحاضر ، إلا أنه كان يعاني من قلق لا يعرف مصدره لأن تجارب خطاب أفندي في الحياة أكدت له صحة الحكمة التي نطق بها الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الحياة كما عهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان !

واستعاذ خطاب أفندي بالله من تقلب الأيام وغدر الزمان ، وحاول جاهدا أن يبعد عن نفسه شر هذه الوساوس ، ولكن شكوك خطاب أفندي تحولت إلى حقائق أكدتها بعض الشواهد الخطيرة ، اكتشف خطاب أفندي أن هناك لقاءات سرية يعقدها أمين القسم في مكتبه بعد انتهاء العمل في المكتب وانصراف الموظفين ، وتعمد خطاب أفندي أن ينصرف مبكرا لشأن من شئونه في قريته البعيدة ، ولكنه لم يذهب إلى القرية ، وقضى بعض الوقت في قهوة كتكوت ، عاد بعدها إلى المكتب

ليجد طابورا من السيارات أمام المكتب ، ودخل خطاب أفندى مسرعا وفتح باب مكتب الامين ، ويالهول ما رآه . عشرة أشخاص على الأقل بينهم أساتذة جامعة وفلاح وعامل وأحد الشباب الذين كانوا يترددون على المكتب بين الحين والآخر . ولكن كل هؤلاء « كوم » ومحمد افندى عبده « كوم » آخر « ياداهية دقى يا جدعان » محمد عبده بين المجتمعين .

ومن هو محمد عبده ، إنه ولد صايع يعمل موظف قشرة فى مصلحة الزراعة ، وهو عدو من أعداء الثورة المباركة ، كان فى تنظيم شيوعى متطرف وقضى عدة سنوات فى نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات فى سجن الواحات ، وتردد على المعتقل بعض الأوقات وكان لا يخفى عداءه للثورة ورجالها الميامين . وقبل الثورة كان عدوا للحزب السعدى وكان يطلق عليه حزب الاغلبية ، وكم من المعارك نشبت بينه وبين خطاب أفندى من قبل . ما الذى جاء بمحمد عبده إلى هنا ؟ وما هى الرابطة التى تربط هذا المحمد عبده بهؤلاء الأساتذة الأجلاء اضطرب أمين المكتب عندما اقتحم خطاب أفندى خلوته مع أصدقائه . وسأل خطاب أفندى فى صوت يشوبه الخجل انت مش كنت مسافر ؟ إيه اللى رجعك تانى ؟ واعتذر خطاب أفندى وتعلل بأنه نسى أوراقا هامة على مكتبه ، وأنه عاد ليأخذها معه ولكنه فوجىء بطابور السيارات أمام المكتب فتوقع أن يكون حادثا خطيرا قد وقع . ولذلك جاء يستفسر من سيادة الأمين عن حقيقة الأمر . ودعاه السيد الأمين إلى الجلوس وراح يشرح له الأمر قائلا : الناس دول يا سيدى مش عاجبهم شغلنا قدموا شكوى ضدنا فى الأمانة العامة، وفوجئنا بهم جايين المكتب فأردت أن أوضح لهم حقيقة موقفنا ، والحمد لله إنك رجعت تانى . وأشار أمين المكتب إلى خطاب أفندى وقال للمجتمعين ، عندكو خطاب أفندى مثلا شايل هم المكتب وشغال ليل ونهار وبدون مقابل إلا الرغبة المشبوبة فى خدمة الجماهير . ورد خطاب أفندى على

استحياء . كله بفضل توجيهات السيد الأمين انفض الاجتماع وخرج الجميع وذهب خطاب أفندى إلى قهوة كتكوت وجلس ساهما يفكر فيما رآه بعينيه في مكتب الامين . إنه لم يصدق حرفا واحدا مما قاله الأمين، ولكن ما هى حقيقة الأمر ؟ وما الذى جمع الشامى على المغربى فى هذا الاجتماع المريب ؟ وقضى خطاب أفندى عدة أسابيع بعد ذلك يراقب مكتب الامين ، وكان ينصرف أحيانا ثم يعود إلى المكتب فجأة ، ولكنه لم يضبط أى اجتماع فى المكتب بعد ذلك ، وبعد فترة كاد فيها خطاب أفندى أن ينسى ما حدث فى تلك الليلة ، غير أن الولد ريعو جاءه بخبر أشعل النار من جديد فى قلب خطاب ، أبلغه الولد ريعو أنه رأى رئيسه أستاذ الجامعة مع جماعة من الناس يترددون على بيت محمد عبده . يا خبر أسود ومدهون بالنيلة . السيد الامين بذات نفسه ومعه عدد آخر من الناس يذهبون لزيارة محمد عبده، هذه من علامات الآخرة ورب الكعبة . وكان الأمين ومن معه قد اتخذوا قرارا بعد اقتحام خطاب أفندى لمكتب الأمين ، أن يعقدوا اجتماعاتهم فى بيت أحدهم ، ولما كان بيت محمد عبده يقوم فى منطقة على حافة المزارع فى نهاية العمران بالجيزة ، فقد قرروا عقد اجتماعات (التنظيم الطليعى) هناك . ولم يُضع خطاب أفندى وقتا فى اكتشاف حقيقة الأمر . ولما كان الولد ريعو يسكن حجرة على سطح منزل مجاور لبيت محمد عبده . فقد اتفق مع ريعو على أن يتردد أحيانا إلى حجرته لأمر هام . ورحب ريعو بالفكرة . ولكن ريعو للأسف لا يكون فى المنزل غالبا فى الأوقات التى تعقد فيها هذه الاجتماعات . وقال خطاب أفندى لريعو وهو يدس فى يده بأوراق نقدية ، ولا يهمك .. أنا هابقى آخذ المفتاح واروح هناك اقعد شوية لوحدى إذا ما كانش عندك مانع ، ورد ريعو . استغفر الله يا أستاذ ، دا بيتك ومطرحك ولو أنه مش أد المقام . ونفذ خطاب أفندى مشروعه فى اليوم التالى مباشرة . ومضت عدة أيام لم يحدث فيها جديد ، حتى

كانت الليلة الموعودة ، عندما بدأ الاجتماع المشبوه ، حضر نفس الأشخاص الذين رآهم خطاب أفندى فى مكتب الأمين تلك الليلة ، وحضر الأمين على قدميه ممسكا فى يده بشنطة تحوى أوراقا . يا داهية دقى يا ناس .. نفس الأشخاص ونفس الوجوه . ما الذى جعل هؤلاء السادة يجتمعون فى مثل هذا المكان ؟ ولماذا يختفون عن الأنظار ؟ لقد تحققت شكوكه أخيرا ، وهذا الأمين أستاذ الجامعة شيوعى بدون شك . إنها مؤامرة ضد الثورة المباركة ، والولد الصايع محمد عبده سيصبح يوما ما حاكما للجيزة ، مفيش كلام ! وراح خطاب أفندى يستعرض علاقته مع أستاذ الجامعة أمين قسم الجيزة أخيرا أدرك خطاب معنى هذه الكلمات التى كانت تتردد فى حديث الأستاذ .. المد الشعبى والتنظيم الثورى ، وأصحاب الياقات البيضاء ، ومن كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته .

إنه شيوعى هو الآخر مثل محمد عبده ، ولكن ما الذى ينقصه لكى يتحول إلى شيوعى ؟ المسألة طبيعية مع محمد عبده ، فهو جربان وشقى وتعيس ، ولكن الأستاذ .. هذا هو الأمر العجيب ! هل يقف خطاب أفندى مكتوف اليدين أمام هذا الخطر الداهم ؟ وخصوصا أن المسألة تخص خطاب أكثر من أى أحد آخر . لو انتصرت الشيوعية فسيموت خطاب فى السجن بالتأكيد يا لها من مشكلة رهيبة ولابد من حلها بسرعة قبل أن تقع الفاس فى الراس . لم يتوان خطاب أفندى عن العمل بسرعة فتوجه ذات ليلة إلى قسم الشرطة واجتمع بعض الوقت مع ضابط المباحث وقص عليه بالتفصيل ما رآه بعينيه فى مكتب الأمين. وفى بيت محمد عبده . وحرص على أن يذكر للضابط أن الدكتور أستاذ الجامعة رجل فاضل ولكنه شيوعى بالتأكيد . ولابد من الإسراع فى مواجهة هذا الأمر الخطير . ومن أجل التأكد بأن الأمور تسير فى الطريق الصحيح ، حرص خطاب أفندى على البقاء فى حجرة ريعو وقتا أطول على الأقل لكى يسعد نفسه بمنظر القبض على هذه

الفئة الضالة التى تخطط لإشعال النار فى الوطن وكان يتواجد أحيانا فى بيت ريعو أثناء وجود الأخير فيه ، وأحيانا يتواجد فيه بمفرده .
ولما لاحظ ريعو قلق الأستاذ وعصبيته نصحه بأن يشد نفسين من سيجارة ملغومة لكى يريح أعصابه ويريح مخه الذى أرهقه التفكير .
وشعر خطاب أفندى بأن السيجارة لها مفعول السحر فى نفسه ، فراح يطلب منها المزيد ، وكان ريعو فى الخدمة بأسلوب اطبخى يا جارية كلف يا سيدى ! ولم يتردد خطاب أفندى فى تغطية كل التكاليف .
وذات مساء وقعت عينا خطاب على بنت صبية فى السادسة عشرة من عمرها تقيم مع أسرتها الفقيرة فى حجرة مجاورة لحجرة ريعو . كانت البنت رغم فقرها تبدو مليحة وناضجة ، صدرها يترجرج فى حركة مرسومة كأنه من وضع مخرج. وشفتاها مكتنزتان يتوسطهما شق يحرك شهية العابد العاكف المعتزل للحياة . واستبدت الرغبة بخطاب أفندى فنادى على البنت وهى فى طريقها للخروج وتوسل إليها فى أدب مبالغ أن تشترى له علبه سجاير، وعندما عادت شكرها بشدة وأعطى لها فكة الجنيه ، ولكن البنت استكثرت المبلغ وأصرت على إرجاعه فأطبق خطاب على كفها بكفه وأقسم بكل المقدسات أن تحتفظ بالمبلغ هدية متواضعة من عمها خطاب ، لم يشعر خطاب أفندى فى حياته بهذا الشعور الذى أحس به فى اللحظات القليلة التى أطبق فيها بأصابعه على كف البنت الصغيرة . واستبدت الدهشة بخطاب أفندى لهذا الشعور اللذيذ الذى لم يشعر به فى أى وقت ، وخصوصا أن خطاب أفندى لم يكن له أية مغامرات من هذا النوع . وأصبح من عادة خطاب أفندى كلما رأى البنت أن يكلفها بشراء أشياء له من الخارج ، ويحرص على أن يترك لها الباقى هدية متواضعة منه لخدماتها الجليلة.
ولاحظ خطاب أفندى أن البنت أصبحت وهى فى طريقها للخارج تحرص على أن تسأل خطاب أفندى إذا كان يرغب فى شراء شىء من الخارج ، ثم صارت تتحدث معه وقتا أطول . وضاعف خطاب أفندى

من هداياه للبنت . حتى كان يوم جاءت إليه الأم تسأله إذا كان يرغب في تنظيف الحجرة أو غسيل ملابسه ، فهو رجل كريم يستحق الخدمة التى هو أهل لها بكل تأكيد . وذات صباح جاءت الأم ومعها البنت ، واستأذنت خطاب أفندى في أن يسمح لشربات بأن تقوم بكنس الحجرة التى يبدو أنها لم تكنس منذ عدة شهور .

ودخلت شربات الحجرة ترتدى جلبابا ممزقا مفتوح الصدر ، وراحت تكنس الحجرة وهى منحنية فى حركة متعمدة لإبراز مفاتنها ، ولم يتمالك خطاب أفندى نفسه فاحتضن البنت فى رفق ومسح بيده على شعرها ثم انحنى وطبع على خدها قبلة .

لم تقبل البنت هذا السلوك ولم ترفضه . ولكنها تململت فى دلع ، وتركت المكنسة وانطلقت من الحجرة نافرة وراضية فى الوقت نفسه ، واضطرب خطاب بشدة وخاف من عواقب فعلته ، وبالرغم من ذلك شعر بأنه يكاد يطير من السرور . أخطر ما شعر به هو الرائحة التى نفذت إلى خياشيمه وتسللت إلى أعماق روحه رائحة البنت الصبية . إنها رائحة تختلف عن الروائح التى جربها من قبل مع غيرها من النساء يبدو أن للشباب رائحة خاصة لا يعرفها إلا مجرب . ولم يستطع خطاب أفندى أن يبقى فى الحجرة فغادرها مسرعا إلى قهوة كتكوت .

وأيام طويلة وكثيرة مرت دون أن يقع ما كان ينتظره خطاب أفندى، لم يقبض على أحد بينما الاجتماعات تتكرر فى منزل محمد عبده . تصبح مصيبة كبرى لو أن ضابط المباحث متواطىء هو الآخر مع الشيوعيين ، ولكن هذا الضابط الصغير ربما ليس فى دائرة اهتماماته أمر خطير على هذا المستوى . إنه مجرد ضابط مباحث يتعقب النشالين واللصوص والبلطجية وباعة المخدرات ، وخطف خطاب أفندى رجله إلى مكتب المباحث العامة. وحكى للمفتش كل شىء بالتفصيل . الكارثة الكبرى أن المفتش استمع إلى تفاصيل المؤامرة فى

هدوء . وقال لخطاب : سنبحث الأمر في هدوء وعلى مهل ، ونصح خطاب أفندى بعدم الثرثرة في هذا الأمر مع أحد . وأضاف بأن هناك أشياء تحدث قد يخطىء الإنسان في تفسيرها ، ولذلك يجب ضبط الأعصاب والتصرف بحكمة بالغة ، يا خبر زى الزفت ، يبدو أن البلد كلها تحولت إلى الشيوعية والمستقبل مجهول والمصير أسود من قرون الخروب ! ولكن خطاب أفندى لن يهدأ ولن يكل . ثرثر بما يعرفه لصهره في القرية ثم عاود الثرثرة مع المعلم كتكوت والولد ريعو .

ثم راح يثرثر مع كل الناس . لقد نذر نفسه لمحاربة الشيوعية حتى النفس الأخير .

وانتشرت حكاية الشيوعية التي أشاعها خطاب أفندى . وواصل مراقبته لبيت محمد عبده ورصد الاجتماعات وكتابة تقارير عنها راح يرسلها إلى الأمين العام وأمين التنظيم ووزير الداخلية ، وأصبح يقضى وقتا أطول في حجرة ريعو . وياهناه عندما اكتشف أن البنت شربات لم تكشف سره ولم تفضحه ، وتجرأ أكثر ، حتى جاء يوم وهو مستلق فوق الكنبة التي يستخدمها ريعو كسرير ، عندما دخلت البنت شربات لترتيب الحجرة ، ولكنه طلب منها أن تعد له كوبا من الشاى .

وعندما فرغت من إعداد الشاى ، نام على بطنه وطلب منها تدليك ظهره لأنه يشعر بأن البرد ينام في ضلوعه ويكاد يمزق عضلاته ، وراحت البنت تدلك عضلات خطاب أفندى ، ولكنه جذبها فجأة واحتضنها بشدة . وكاد يطير من الفرح عندما وجد استجابة من شربات وسرورا بالغا بالخطوة الجديدة .

وأصبحت عادة عن خطاب أفندى ، أن يشترى الكباب والعيش والسلطة ويذهب إلى حجرة ريعو ليتناول طعام الغداء مع شربات. ثم يقضى معها وقتا طيبا قبل أن يغادر الحجرة بعد المغرب . ثم يقوم بعد ذلك بجولته المعتادة في مكافحة الشيوعية والضرب بشدة على أيدى الشيوعيين ، لأنه لا يضيع حق وراءه مطالب .

فقد تلقى استدعاء من أمين التنظيم أخيرا نجحت حملته وستبدأ حركة التطهير لوضع الأمور فى نصابها . عندما جلس فى مواجهة امين التنظيم اكتشف أن الأمر لم يكن كما توهم ، عاتبه الرجل على خروجه على تقاليد العمل الحزبى ، وأنه ارتكب جريمة التشنيع على حزب الدولة . وراح خطاب أفندى يشرح لأمين التنظيم مدى الخطر الذى تتعرض له مصر على يد بعض أبنائها الذين كرمتهم الدولة ورفعتهم إلى المناصب الكبرى ، كما هو الحال مع أمين التنظيم بالجيزة. دكتور الجامعة واتهم محمد عبده بأنه سوسة تنخر فى قوائم النظام لهدمه من أساسه واضطر أمين التنظيم إلى زجر خطاب أفندى بشدة ووصف حركته بأنها جنون ينبغى كبحه ، وهدده بطريق غير مباشر بالعواقب الوخيمة لسلوكه الذى لا يمكن قبوله . وخرج خطاب أفندى من مكتب أمين التنظيم وقد تأكد أن المؤامرة متشعبة وأن مصر محاصرة وأنها فى الطريق إلى الشيوعية ، ولأن المصائب لا تجىء فرادى ، فقد تلقى خطاب أفندى صفعه أخرى بإلغاء انتدابه من الاتحاد الاشتراكى . ولكنه رفض العودة إلى التدريس وتفرغ تماما لعلاقته الجديدة بشربات ، وللوقوف فى وجه المؤامرة الشيوعية ! وحاول بعض أصدقائه من العارفين ببواطن الأمور توضيح الصورة له دون جدوى . شبح المؤامرة كان مسيطرا عليه . ووجود محمد عبده هو الدليل على أن مصر مستهدفة وأن المصير مظلم بلا شك ، واتسعت حركة خطاب أفندى فراح يقوم بزيارات للقرى المجاورة ويحذر من الانقلاب الشيوعى القادم . ثم جاء يوم أسود هز كيان خطاب وكاد يصيبه بالجنون . جاءته أم شربات أثناء تناوله الغداء مع شربات وجلست أمامه حزينة وأبلغته فيما يشبه الإنذار بأن عليه أن يقوم بتصحيح غلطته ، أن يتزوج شربات أو يواجه الحساب أمام الشرطة وفى المحاكم . ولكن خطاب أفندى تلقى الإنذار باستهانة شديدة واتهم الأم بمحاولة ابتزازه ، وأنذرها بأنه رجل مسئول ويعرف كيف يحمى

نفســه ، وهددها بمصــير مظلم إذا خطت خطوة واحــدة ضده ، وانقطع عن التــردد على حجــرة ريعو ، واتفق مع ريعــو على إنكار أى تردد له على حجــرته وسلمه المفتــاح الذى كان فى حوزته . ولمــا كان انقطاع خطاب أفندى عن زيارة حجــرة ريعو ، ذهبت الأم إلى ضابط المــباحث وتقدمت بشكوى تتهم فــيها خطاب أفندى بالاعتداء على ابنتــها القاصر شربات! وكانت فضيحة بجلاجل انتهت بحبس خطاب أفندى أربعة أيام ثم أفرجوا عنه بكفالة وأصــر خطاب على أن الاتهام باطل ، وأنه مجرد رد فعل لاكتشــافه المؤامرة الشيوعــية التى تستهدف مصــر بعلم كبار المسئولين .

ولكن إذا كان خطاب أفــندى قد أصبح خــارج الأسوار ، فقــد واجه محنة أشــد من محنة الســجن . رفض أصهــاره أن يستقــبلوه وهددوه بأوخم العواقب إذا اقترب من حدود القرية . واكتشــف خطاب أفندى أنه اشتــرى الترام ، لأن كل أمــلاكه التى اشــتراها فى زمــام القرية كــانت باسم السيدة حرمه ، ولما كانت الزوجة من عائلة لها شوكة قوية ، فقد آثر الصمت وبادر إلى طلاق زوجته طلبا للأمان وعندما فاتح ريعو بأن يستــأجر غرفــة أخرى بعيــدا عن بيت شربات يســدد أجرها من جيــبه ويسكنها ريعو بلا مــقابل ، رفض ريعو لأن المعلم حــذره من إقامة أية علاقة مع خطاب ، وقهــوة كتكوت طبعا ليس لديها استعداد لاســتقباله بأى حال من الأحوال . حتى توكيل شركة السجائر كان باسم صهره ، وعندما حاول إلغاءه وجد صدا شديدا ، وحتى مدير شركة السجائر رد عليه فى التليفون من طراطيف أنفه وعامله باحتقار ، واضطر إلى إنهاء المكالمــة بحجة أنه مــشغول بشدة وهكذا ســدت جمــيع الأبواب أمام خطاب أفندى فــانسحب فى هدوء وغــادر القاهرة كلــها وودع الجــيزة وذهب إلى شبرا الخيمة واختفى هناك عند أحد الأصدقاء .

وقبل موعد محاكمة خطاب بأيام قلائل ، انقلبت أوضاع الدولة وتم إعلان ثورة مــايو ، وذهب جمــيع المســئولين الســابقين إلى الســجن .

وأعيدت قضية خطاب مع شربات إلى النيابة من جديد لإعادة التحقيق فيها . وانتهت إلى الحفظ وعاد خطاب إلى الجيزة ظافرا ، ولم تمض سوى أيام قليلة ، حتى صدر قرار بحل الاتحاد الاشتراكى وإعادة تشكيله من السفح إلى القمة ، وانتهت عملية تطهير الصفوف من الخونة ، وصدر قرار بتعيين خطاب أفندى أمينا لفرع الجيزة فى الوقت الى غاب فيه أستاذ الجامعة ومحمد عبده وزملاؤهما خلف الأسوار وخرجت جرائد الصباح فى اليوم التالى بعناوين ضخمة «عودة الطيور المهاجرة» وصورة خطاب أفندى تتصدر الصفحات وفى المساء اشتعلت قهوة كتكوت بأضواء الكهرباء ورفعت اللافتات بشعارات الترحيب بعودة المناضل خطاب حتى عقد توكيل شركة الدخان تم إلغاؤه وأعيد تحريره باسم خطاب .. هكذا علنا وبالمكشوف .. فهذا عصر الحرية وسقوط عهد الخوف .. وفى تلك الليلة التى احتفلت فيها قهوة كتكوت بعودة الطيور المهاجرة . رقص المعلم كتكوت حتى الصباح ولكن خطاب أفندى لم يشرف الحفل ، واكتفى بإيفاد مندوب عنه لشكر المعلم كتكوت ومع الشكر مظروف يحوى بعض المال .

٦ حميدو ..

كان واحدا من أشهر أهالي الجيزة بالرغم من تواضع نشأته ووضاعة مهنته. فقد قيل إن والده كان شيالا بمحطة أتوبيسات كافوري بميدان الجيزة، ولما فشل في توفير القوت الضروري لولده الوحيد قام بتسليمه إلى ملجأ البنين بالجيزة، ولكنهم رحلوه بعد فترة إلى إصلاحية الأحداث لأن الملجأ خاص بالأيتام فقط ولا مكان فيه لغيرهم!

وعندما خرج حميدو من الإصلاحية كان قد أصبح شابا ولم يجد مكانا يتجه إليه إلا محطة أتوبيسات كافوري في المكان الذي قضى فيه والده أغلب فترات حياته، قبل أن يموت فجأة وهو واقف على الرصيف. ولكن مهنة الوالد لم ترق لحميدو، فاشترى صندوقا صغيرا واستقر به الحال في قهوة كتكوت يمسح أحذية المترددين على القهوة من العمد والأعيان وتجار القطن وجماعة الأدباء. ولأنه كان صاحب تجربة مريرة فقد كان يبدي للزبائن مزيدا من الأدب الزائف والخضوع الشديد. مما دفع بعض الزبائن إلى تكليفه بمهام أخرى غير مسح الحذاء. بعضهم كان يعهد إليه بتنظيف الشقة، والبعض الآخر كان يبعث به لشراء أدوية من الأجزخانة أو بضاعة من السوق وكان من الممكن أن تنحصر شهرة حميدو في نطاق قهوة كتكوت لولا أن رجلا يهوديا كان يدير ستديو سينما على بعد خطوات من قهوة كتكوت،

وكان يستعين بأفراد من أهل الجيزة للقيام بأدوار الكومبارس، وفى فيلم على بابا والأربعين حرامى أصاب الحظ حميدو فظهر فى دور أحد الحرامية الذين اختفوا داخل «الزلع» الموجودة فى مغارة الكنز وكان دور حميدو يتلخص فى الدخول فى الزلعة، وعندما يأتى العسكر، يفتحون الزلع واحدة وراء الأخرى، فإذا برز منها رأس أحد اللصوص ضربه العسكرى على رأسه فيرتمى الحرامى داخل الزلعة، ولكن ضربة حظ اصابت حميدو، فكان دوره يقضى بأن يبرز رأسه من داخل الزلعة فيضربه العسكرى ويرتمى داخل الزلعة ثم يعود رأسه إلى البروز مرة أخرى فيضربه العسكرى مرة أخرى فيعود إلى الاختفاء دون أن يعود مرة أخرى للظهور. وبعد عرض الفيلم صار حميدو من نجوم الجيزة حميدو راح حميدو حضر ولما كان حميدو هو بطل طلبة وتلاميذ مدارس الجيزة فقد فكر بعضهم فى استخدام حميدو بدل محمد فى كتاب المطالعة، فيقال زرع حميدو وحصد حميدو وأكل حميدو وضرب حميدو إلى آخر رحلة حميدو فى الحياة. واتسعت شهرة حميدو أكثر عندما ظهر فى فيلم أمير الانتقام وفى دور كومبارس صامت ولكنه كان دورا يستحق الاحترام فقد امتطى صهوة حصان وارتدى زى فارس مغوار واشترك فى المعارك التى نشبت تحت قيادة أمير الانتقام. ولكن ضربة حميدو الكبرى كانت فى فيلم عريس من اسطنبول، فقد ظهر فى دور خادم فى سرايا الباشا وتكلم فى هذا الدور عدة كلمات، وانتقل بذلك من مرتبة كومبارس صامت إلى كومبارس متكلم، واعتبر حميدو هذه النقلة خطوة واسعة على طريق النجومية شأنه شأن أنور وجدى ومحسن سرحان وبالفعل أثرت هذه التطورات على مهنة حميدو الأصلية، فاعتزل مهنة مسح الأحذية واحتفظ بالصندوق فى الوقت نفسه، واستعان بشاب عاطل للقيام بمسح الأحذية لقاء نسبة معينة من الدخل وتفرغ هو لأعماله الفنية التى اتسعت فشملت المسرح أيضا. وكان يوسف بك وهبى يعرض

مسرحياته كل صيف على مســرح شهرزاد بالجيزة والذى تقوم مكانه الآن سينما شهرزاد الصيفى فى مواجهة كوبرى عباس، وتمكن حميدو من الالتحاق بدور كومبارس فى مسرحية أولاد الشوارع وعندما وجد حمـيدو نفسه على المـسرح أمـام الجمهـور ومن بينهم بعض أعـيان الجيزة الذين يعرفـونه ويعرفهم، فكر فى قطع خطوة أوسع على طريق المـجد فـقرر أن يـشارك فى التـمثـيل بالكلام مع أن دوره كـان دورا صامتا فى ثياب متسول يفترش الرصيف.

وبالفعل ألقى حميـدو خطبة مقتبسا إياها من مقتطـفات مختلفة من أدوار يوسف بك وهبى نفـســه فى عديد من المســرحيات ولما كـان يوسف بك وهبى يقف على خشبة المسرح فى تلك اللحظة فقد استبدت به الدهشة وتصــور أنه معتوه أو مـخبول، وتأكد من ذلك عندمـا أمره بالصمت فلم يصمت بل واصل الخطابة بطريـقة يوسف بك وهبى، مما اضطر يوسف بك وهبى إلى ضــربه بالشلوت ضـربة قـوية أطاحت به من فوق الخشبـة على كراسى المتفرجين وسببت هذه الحادثة مشكلة فى الجيـزة. فقد انتـشر الخبر وذاع فى أنحـاء الجيزة بعـد أن نشرته مجلة فنية واسعة الانتشار ممـا دفع بحميدو إلى الدفاع عن نفسه بأن ما حـدث كان نتـيجـة مؤامرة من جـانب يوسف بك وهبى لأن تمـثيل حمـيدو على المســرح كشف يوسف بك وهبى وأظهره كـمجرد مـمثل عادى إلــى جانب حمـيدو الذى سـيطر على المـتفرجـين ودفعـهم إلى التصفيق له بشدة لمدة عدة دقائق.. ولم يكن أمام يوسف بك وهبى إلا ضـربه بالشلوت لكى يقطـع هذا السبـاق بينه وبيـن حمـيـدو الذى لو استمر لكانت النتيجة فى صالح حميدو بالتأكيد وراح حميدو يردد فى مجـالسه الخاصة وبين زبائن قـهوة كتكوت. واقـتنع بعض الناس بما كان يردده حـميـدو لدرجة أن المـعلم كتكوت عـرض على حمـيدو أن يستـأجر منه بوفيـه المسرح وقـد وافق حميدو عـلى الفور فطلب من المعلم كتكوت سلفـة تخصم من الإيجار فيما بعـد ولكن مضت شهور

طويلة وسنوات أيضـا دون أن ينفذ حـميـدو شيـئا من أحـلامه، وزاد الطين بلة أن أفـلام السيـنما التى كـانت تنتج فى اسـتوديو مـزراحى المواجـه لقهوة كـتكوت أصبحت قليلة، وانخـفضت أجور الكومـبارس بسبب حرب ٤٨ فى فلسطين والقت الأحوال السيـئة ظلها على حميدو، وبدأ يعانى من وقف الحـال مما اضطره فى النهاية إلى العـودة لمهنته القديمـة وقام بتـسريح الشاب الذى اسـتأجره للقيام بمسـح الأحذية وراح حميدو نفسه يمارس عمليـة تلميع الأحذية بنفسه وكان إذا سأله أحدهم عن سـر عودته إلى مهنتـه القديمة برر ذلك بأن مـسح الأحذية أشـرف من إجـباره على تـمثـيل الأدوار التى تعـرض عليـه وزعم أن المخرج مـحمد كريم عـرض عليه دور فؤاد فى أحد المـواضيع ولكنه يفـضل الجوع على الـقيـام بمثل هـذه الأدوار. ولما كـانت الأمور قـد تدهورت إلى هذا الحد مع حـميدو فقد آثر الاختـفاء بعض الوقت ولغط الناس بأنه سافر إلى فلسطين، وقال آخـرون إنه ذهب إلى الإسماعيلية للعمل فى مـعسكرات القناة المهم أن غـيبة حـميدو لم تستـمر طويلا، سرعان ما ظهر من جديد فى قـهوة كتكوت، ولكنه عاد هذه المرة ببدلة وعلى رأسه برنيطة بيـضاء مصنوعـة من القماش. وعرف رواد قـهوة كتكوت من حميـدو نفسه أنه كان فى بورسعيـد، وأنه عمل فى معسكر بحـرى على شـاطىء المـيناء، واكـتشـفـوا أنه ينطق ببـعض الكلمـات الإنجليزية. وبعـد أن قضـى اسبوعـا فى القهوة اختفى مـن جديد وعاد إلى بورسعيد وفى هذه المرة امتدت غيبته عاما كاملا، وعندما عاد كان ينفق عن سعة، ويدخن سـجائر فاخرة قال إنه حـصل عليها من النافى الانجليزى بقـروش قليلة وعرف رواد قـهوة كتكوت أنه صـار موضع ثقة القائد الانجليزى وهو ضابط برتبة كابتن، وأنه لا يتخذ أمرا إلا بعد مشاورة حـميدو ومرافقتـه ولكن أكاذيب حميدو انكشـفت كلها، عندما هبط على القـهوة ذات مـساء عدد من الـمخبـرين على رأسهـم ضابط مبـاحث والقوا القـبض على حميـدو وذهبوا به إلى قـسم الشرطة. ثم

عرف أهل الجيزة أن حميدو قدم للمحاكمة وأنه أدين في جريمة سرقة المعسكر الانجليزى، وحكموا عليه بالسجن لمدة سنتين. نسى الناس حميدو وساعدهم على نسيانه أنه لم يعد إلى الجيزة بعد خروجه من السجن، ولكنه ذهب مرة أخرى إلى بورسعيد وقيل أنه تزوج من بنت بورسعيدية واستقام هناك وعمل مع أخيها البمبوطى على قارب فى الميناء وقيل إنه حصل على باسبورت بحرى وأنه سافر على ظهر مركب ترفع علم هونج كونج. ولم يظهر له أثر بعد ذلك إلا بعد النكسة، عندما عاد إلى قهوة كتكوت واستقر فيها زبونا فقط بلا عمل من أى نوع ونصحه البعض بالعودة إلى شغلته القديمة ماسح أحذية، ولكنه قال بأنه يفكر فى مستقبله ولم يستقر رأيه على عمل معين بعد. ثم جاء ذات مساء إلى القهوة لتوديع المعلم كتكوت والجرسون ريعو، وكان معه جواز سفر مصرى وتذكرة سفر على الطائرة وتأشيرة دخول لليونان.

وسافر بالفعل إلى اليونان ولكنه غاب عدة أشهر طويلة قبل أن يظهر من جديد، واكتشف الناس أن البوليس اعتقله فى المطار لأن جواز السفر كان مزورا وتأشيرة دخول اليونان أيضا. وكانت آخر مرة وقع فيها بصرى على حميدو فى إحدى أمسيات مايو الحارة من عام ١٩٧١.

ولم أره بعد ذلك لعدة أعوام طويلة، ولكن بسبب غيابى والحمد لله خلف أسوار السجن، وعندما خرجت من السجن اكتشفت أنه يعمل تاجر شنطة، وأنه دائم الترحال بين القاهرة وبيروت. وغاب العبد لله عشر سنوات كاملة خارج مصر، وعندما عدت كان حميدو يدير محلا صغيرا فى الميدان يعرض فيه ما يهرب به من بضائع من لبنان. وعندما جاء ليهنئنى بالعودة كان يرتدى بدلة صيفى فاخرة صناعة لبنانية وكرافتة من الحرير الفاخر، وحذاء إيطاليا، وكان سعيدا وقلقا على نحو ما، وهمس فى أذن العبد لله بأن السر وراء القلق الذى يستبد

به أنه اقترض عـدة ألوف من الجنيهات من البنك، ثم تعـثر فى السداد، والبنك يهدده برفع الأمر إلى القضاء. وقيل إن حمـيدو تغير كثيراً وأنه يتردد على المسجد للصلاة فى المواعيد المحددة، وأنه يصوم رمضان، ويؤذن أحيانا لصلاة الـفجر فى المسجد المجـاور للمحل الذى يمتلكه. ثم تأكدت لى هذه الحقـيقة عندما شاهدته ذات مرة على قـهوة كتكوت يجلس مع بعض أصـدقائه، وقـد أطلق لحيته. يا سـبحـان الله... صـار حميدو بين المشايخ كمـا صـار شولح بين الأنبياء، مع فارق بسيط هو أن الناس فى غزة تعجبت لدخول شولح بين الانبياء، ولكن أهل الجيزة لم يندهشوا لدخول حميدو بين المشايخ!

وذات مساء وكـان الجو خريفا وثمة ريح باردة تـهب على الميدان، فوجـئت بحـميدو يـحضر إلـى مجلسى ليس للسـلام، ولكن لمناقـشة مشروع تجارى مضمون الربح، وقال حميدو فى لغة رجل الاعمال :

أنت قضيت عشر سنين بره، وطبعا الشغل بره غير الشغل هنا، وأنا عـارف إنك راجع ومعـاك لا مـؤاخذة قـرشيـن. إيه رأيك إحنا داخلين مشروع تجارى إنمـا سمين قوى، وأنا معايا شركاء جـماعة من مصر بس شغـالين فى الكويت. والشغلانة بسـيطة.. القرشين اللى مـعاك ع القرشـين اللى معانا، وعلـى قرشين من البنك كـمان، وهنعمل شـركة كبيرة لتـوظيف الأموال.. وعلى فكرة.. الجماعة اللى معـايا همه السبب فى العز اللـى عايش فيـه الجمـاعة اللى عندهم شركـات من النوع ده، لأنهم كانوا زملا مع بعض فى الكويت.

وسألته.. وكيف ستقوم بتوظيف الأموال؟ فقال على الفور...

– أنا قـدامى شـغلة عارفـهـا ودارسـها. أنا بدل مـا روح بيـروت لوحـدى، وأجيب مـعايا شنطتـين، هاروح ومـعايا كـام عيل من بتـوع الجامعة دول، ونرجع ومعانا عشـرين شنطة. وهناخد دكان تانى كبير قوى وهنعرض فيه الحاجة، والبضاعة هتمشى زى الإكسبريس، وآخر كل شهر نوزع قرشـين على الناس والباقى فى جيبنا، حاجـة مضمونة

زى الساعة السويسرى.

وسكت فترة قبل أن يقول :

- إيه رأيك ؟

- المســألة دى عاوزة دراسة، ومــاقدرش، أحكم عليـها بالشكل ده وبعدين.

ولكن حميدو قاطعني فجأة قائلا :

- ماتخافش، خللى قلبك جامد، التجارة تحب الشجاعة. وبقولك دى حاجة مضمونة زى ورقة البوسطة.

وظهر الغضب الشديد على وجه حميدو وعندما قلت له :

- وكمان أنا مــامعــييش فلوس زى مــا أنت فاهم، وأنا كنت عــاوز أدرس المشروع عشان مصلحتك.

وقال حميدو وهو يهم بالوقوف.

- على كل حال أنا قلتلك عشان مــصلحتك، لكن أنت حر، وأنا عملت اللى على وربنا عــالم، وبينى وبينك ناس كــتير بستتحــايل على عــشان تشاركنى بس أنا مش ممكن أشارك أى حد، وأنا اللى اخترتك من دون الناس اللى قاعدين ع القهوة.

ومضى حميدو غاضبا، ولم أره مرة أخرى قبل عدة شهور، وكانت، أحواله قد تطورت بشكل خطير.

٧ حميدكو للاستثمار !

عدت إلى الوطن بعد رحلة علاج استغرقت عدة شهور، ولفت نظرى عند ذهابى إلى قهوة كتكوت فى المساء وجود لافتة ضخمة أعلى القهوة تحث المواطنين على المساهمة فى «حميدكو للاستثمار» وحرص أصحاب اللافتة على التأكيد بأن «حميدكو» تحقق أهداف الوطن فى الثورة الزراعية وفى الأمن الغذائى وفى اكتشاف كنوز أرض الفيروز. واكتشفت أن حميدكو هو حميدو نفسه ولكن أضاف «كو» إلى اسمه تمشيا مع النظام العالمى الجديد! وتمنيت أن أعرف مصدر الفلوس التى ساعدت حميدو على إقامة هذا الصرح الاقتصادى الكبير. ومعرفة شركائه فى المؤسسة التى تعمل على تحقيق أهداف الوطن فى كل هذه المشروعات القومية الكبرى. ولم أستطع أن أظفر بأية معلومة ولو ضئيلة من الولد «ريعو» ثم من المعلم كتكوت، كان تعليق ريعو عندما سألته.

– حميدو عبر يا بيه!

أما المعلم كتكوت فكان جوابه :

– يعطى من يشاء بغير حساب.

ولكن «الصدف» وحدها أتاحت للعبد لله فرصة إلقاء نظرة على الحقيقة.

كان مساء باردا ومطيرا مما اضطرنى إلى مغادرة الرصيف والاحتماء من الجو فى داخل القهوة. وما أن دخلت حتى هب أحد

الحاضرين واقفا ضاربا تعظيم سلام بطريقة رجال الأمن. ياقوة الله، عم عبدالهادى!! فين أراضيك؟ وانتحيت به جانبا وجلسنا نتحدث معا. عم عبدالهادى رجل طيب من أهالى الجيزة، عمل فترة من الوقت سائقا بشركة الترام، ثم اضطر إلى التقاعد بعد حادث أدى إلى إصابته بعجز فى ساقه، وترك العمل بعد أن حصل على المكافأة والتعويض، وعلق فاترينة سجاير على أحد الجدران بجوار قهوة كتكوت، ولكنه لم يصبر طويلا على بيع السجاير الفرط، وسرعان ما باع الفاترينة واكتفى بالجلوس على قهوة كتكوت. وكان أحيانا يجلس مع شلة الأدباء على أساس أن بينه وبينهم صلة ما، فقد كان لعم عبدالهادى بنت متمردة خرجت من طوعه، وعملت «كومبارس» فى الأفلام، ولما كانت البنت مليحة وعلى جانب من الجمال فقد استطاعت أن تخرج من دائرة الكومبارس لتؤدى أدوارا ثانوية، وكانت تلعب دور البنت اللعوب بجدارة، مما سمح لأهالى الجيزة بترديد اسمها فى إشاعات عن سلوكها، قد يكون لبعضها أساس فى الحقيقة، أما أغلبها فكانت من نسج خيال العامة والفقراء.. ولما سألت عبدالهادى عن ابنته، روى لى أنها تزوجت منذ فترة من واحد «ريجيسير» وأنجبت منه بنتا، ثم هجرته بعد أن اكتشفت أن الريجيسير إياه لا يستخدم البنات فى أفلام السينما فقط، ولكنه يستخدمهن فى أعمال أخرى شائنة. ولكن عم مهدى اكتشف بعد فترة أن خلاف ابنته مع الريجيسير لم يكن للشرف دخل فيه، وأن الخلاف حول توزيع الأرباح، وبدأت البنت تدير أعمالها بنفسها بعد الطلاق، ولما انكشف أمرها ألقت الشرطة القبض عليها وأرسلتها لمدة ثلاث سنوات خلف القضبان، وماتت زوجة عبدالهادى بعد انتشار الفضيحة، وسلمت ابنته طفلتها لبعض معارفها، ولكنها ماتت بعد فترة، وخرجت البنت من السجن بعد قضاء مدة العقوبة، وباشرت أعمالها على الفور، علمتها التجربة القاسية دروسا جديدة، فلم تعد تبيع نفسها ولكنها راحت تتاجر بالأخريات، أما هى فقد أصبحت تصطاد فرائسها من بين الأثرياء الجدد. وأوقعها حظها فى

الولد حميدو ـ هكذا نطق عم عبدالهادى الاسم ـ ثم قال وهو ينظر للعبدلله :

– فاكر الواد حميدو اللى كان بيمسح الجزم فى القهوة. سبحان الله.. حكمته واسعة، بيمد للظالم، الواد بقى من أصحاب الملايين. إزاى؟ هو ده اللى هيجننى، البنت اشتغلت مع حميدو كام شهر وبعدين اتجوزها. عربيات إيه يا استاذ شقق إيه وشاليهات إيه وسفر بره إيه، حاجات زى اللى بنشوفها فى السينما. وشوف البجاحة بتاع الواد، بعد الجواز بعتلى رحت قابلته، قال إيه.. عاوز يشغلنى عنده.

– يشغلك إيه يا عم عبدالهادى، هوه بيبيع إيه؟

– بيبيع مرشيدش وبيبيع درة وفول بيجيبهم من بره، وبيبيع عجول وأراضى وبيشترى دولارات، وبعيد عنك طول الليل سهران يسكر ويلعب قمار، واللى هيجننى إن ربنا بيمد له الحبل وبيعطيه من واسع، وبعدين مش مكفيه يضحك على الناس، كمان بيضحك على ربنا، تصدق يا أستاذ.. عمل دقن طويلة وطلعتله زبيبة فى جبهته!!

هذا إذن هو سر حميدكو، جمع المجد من أطرافه، جمعت الشركة بين حميدو والبنت حلاوتهم التى اشتهرت فى السينما باسم زيزى، ويبدو أن البنت كان لها نفوذ قوى على حميدو، فسرعان ما ظهر فى الجيزة سوبر ماركت حديث باسم سوبر ماركت زيزى، وكما أصبح حميدو من رجال الأعمال، صارت زيزى من ستات الأعمال، وأصبح الأستاذ حديث أهل الجيزة.

ذات مغربية همس الولد كتكوت فى أذنى بأن سيدة فى سيارة خارج القهوة تريد أن تقول لك شيئا هاما، ولكنها تخجل من دخول القهوة. ونهضت بسرعة وعندما اقتربت من السيارة وجدت داخلها سيدة أنيقة تضع على وجهها أصباغا بطريقة توحى أنها راقصة أو ممثلة إغراء، وابتسمت ابتسامة رقيقة واعتذرت عن الطريقة التى استدعتنى بها، وقالت :

كان لابد أن أراك وأتكلم معك، أنا والدى كان دايما بيتكلم عنك

ومعجب بك، وع العموم إحنا مش هنعرف نتكلم هنا، تسمح تتنازل وتشرب معايا فنجان قهوة.

سألتها :

– فين؟

قالت بسرعة :

– فى كازينو شهريار على البحر.

ثم قالت :

– مش ها اعطلك يا دوب فنجان القهوة بس.

صعدت إلى العربة وجلست بجوارها، وأشارت هى للسائق بالإسراع إلى كازينو شهريار. بمجرد دخولنا الكازينو ابدت امتعاضا شديدا للحالة البائسة التى وصل إليها الكازينو، قلت لها :

– دا حاله كده من زمان.

قالت وهى مشمئزة :

– فعلا أنا بقالى عشر سنين ماجيتش هنا.

عقبت على كلامها قائلا :

– بس دا بقاله كده أكثر من كده.

ابتسمت ابتسامة جميلة وقالت وهى تغمز بعينها :

– أنا مش عجوزة قوى كده.

وحول ترابيزة متهالكة عليها مفرش كله ثقوب وبقع، سألتها :

– أنا ما تشرفتش باسم سعادتك.

قالت بصوت أنثوى رقيق :

– يا خبر.. أنا مدام حميدو رجل الأعمال.

– أنت مدام زيزى بالتأكيد.

– كان والدى يصفك بأنك يقظ دائما لا تفوتك شاردة أو واردة.

دققت النظر فيها، كانت ترتدى بلوزة بلون الفضة مفتوحة عند الصدر أكثر مما ينبغى، وجوب أسود مينى جيب، كاد يختفى بعد أن جلست وكشفت عن سيقان نموذجية، وأوراك كمواسير مدافع تنادى –

على رأى ناظم الغزالى - على عاصى الهوى الله أكبر!! بادرتها قائلا :

- أنا تحت أمرك.

- العفو يا أستاذ إحنا كلنا اللى تحت أمرك.

ثم قالت بعد أن أصلحت فتحت البلوزة ففتحتها أكثر.

- الحقيقة الحاج حميدو كان عاوز يكلمك بس انكسف، لكن محسوبتك بقى فى الحق ما تتكسفش، وإحنا عاوزينك فى خدمة.

- ياريت أكون أقدر عليها.

- دانت تقدر على المستحيل.

كان الجرسون قد أحضر فناجيل القهوة فرشفت رشفة ثم قالت :

- إنت عارف أعمالنا توسعت قوى، والشركة بقت شركة محترمة وبتشتغل فى حوالى ١٠٠ مليون.

ثم تناولت رشفة أخرى من الفنجال وقالت :

- الحقيقة إحنا بنشتغل بإدينا وسناننا، بس إحنا لازم نقول الحق، الحكومة دى بتشجع اللى عاوز يشتغل، إحنا صحيح مديونين للبنك لكن الحمد لله بنسدد أول بأول، والمكاسب الحمد لله كتير وخير ربنا مغرقنا.

- وأنا مطلوب منى إيه؟

- إحنا فكرنا نعمل قسم للدعاية فى الشركة، قلنا سيادتك أحسن واحد يمسكه، القسم دا هايبقى إدارة كبيرة قوى، وأنت اللى هتختار الناس اللى يشتغلوا معاك وتحدد رواتبهم كمان.

قلت على الفور :

- ياريت كنت أقدر.

- لا عشان خاطرى، دا أنا عشمى فيك كبير قوى، دا أنا من زمان نفسى أتعرف عليك، نفسى أعرف شخصية عقلها كبير زيك كده.

- أنا يا ستى كان على عينى وراسى، وأنا باشتغل بقالى اربعين سنة، لكن عمرى ما أعرف حاجة عن الدعاية والإعلان، أنا فى الحقيقة باكتب الكلمتين بتوعى وبس.

– طيب بلاش تاخد قرار دلوقت، خد وقت.. فكر وبعدين قول.

سكتت زيزى عدة ثوان قبل أن تقول :

– طبعا عاوزة أقولك للعلم بس إن مرتب الوظيفة ٦٠ ألف جنيه فى السنة.

دفعت ثمن القهوة وركبنا السيارة التى توقفت بنا أمام القهوة، وقبل أن أغادرها صافحت زيزى، فغمزتنى فى كفى وقالت :

– عاوزين نقعد مرة نتكلم فى حاجة ثانية غير الشغل.

مرت أيام كثيرة انستنى كل ما دار فى مقابلتى مع زيزى. ولكنى فوجئت ذات مساء بالحاج حميدو يدخل القهوة ويتلفت حوله، وعندما رآنى اندفع نحوى بقوة وصافحنى بحرارة، ولاحظت أن «دقنه» قد طالت عن ذى قبل، وأن أصابعه تمسك بمسبحة طويلة غالية الثمن، وعندما قلت له ملاحظتى عن المسبحة تركها وأقسم بالله العظيم أنها لى ولن يستعملها أحد غيرى. حاولت الاعتذار ولكنى لم أفلح. قال الحاج حميدو :

– حد يرفض سبحة.. دا حتى حرام. هو أنا من غير مؤاخذة باديك بدلة ولا بالطو، دنا باديك حاجة بتاعة ربنا.

جلس الحاج فى مواجهتى ثم قال :

– إيه الحكاية؟ الحاجة زيزى طمنت قلبى وقالتلى عالمقابلة مع سيادتك، وبعدين يا سيدى أنا عرضت عليك شركة معايا وأنت ما رضيتش، قلت نستفيد بعلمك، دانت راجل كل الناس تعرفك ودماغك توزن بلد. وإذا كان المرتب مش عاجبك نرفعه وزى ما تقول :

– أولا المرتب المعروض أكثر من مرتب مدير بنك، وأنا عمرى ما حلمت بحاجة زى دى، بس المشكلة إن أخوك ما يعرفش فى الشغلانة اللى انتو عاوزنى فيها. وأنا ما حيش أكدب على نفسى ولا أكدب على الناس.

– يا سيدى ماتدقش، إنت كفاية قعدتك عندنا، مشكلة تصادفنا، حاجة تحصل كده أو كده، تبقى معانا.

– إنت عارف أنا باصحى م النوم بعد الضهر، وبعدين أنا كبرت على الشغل، وعاوز أتأمل الشوية اللى فاضلين لنا.

– والنبى ما تكسفنى، ورع العموم الحاجة زيزى عازماك بكرة ع العشا، إن جيت هتطول رقبتى ويبقى كتر خيرك.

– هو بكره إيه؟

– ما تقوليش إيه وفين؟ دا الحاجة زيزى طابخة الأكل بإيديها. دنا بعت جبت بطارخ من بورسعيد النهاردة.

لا أعرف ما السبب الذى جعلنى أوافق على حضور حفل العشاء مع الحاج والحاجة، ربما رغبة دفينة فى رؤية زوبة مرة أخرى؟

ولازلت حتى بعد انتهاء الوقت الأصلى واللعب فى الوقت الضائع تثيرنى الصدور النافرة والوسط المخنوق والأرداف التى فى حجم عضلات تايسون، حلقت شعرى فى ذلك الصباح ومسحت حذائى، ربما لأول مرة منذ أشهر وذهبت فى الموعد المحدد، وعندما ضغطت على جرس الباب فتحت على الفور، وكأن أحدا كان يراقب مجيئى من مكان ما فى المنزل.. وفوجئت بالحاجة زيزى تلقى بنفسها فى أحضانى، وأصابنى عطرها الغالى بدوار خفيف ولكنى سحبت نفسى بقوة، فقد خشيت أن يفاجئنى الحاج وأنا على هذا الوضع. ولكنى اكتشفت عندما أصبحت فى حجرة الصالون أن الحاج ليس موجودا بالمنزل، وأنه يرأس مجلس الإدارة المنعقد فى تلك اللحظة. كانت زيزى ترتدى روبا من الحرير اليابانى، وتحته قميص نوم فستقى يكشف أكثر مما يستر، حاولت أن تقدم لى كأسا ولكنى رفضت بشدة وتمسكت بشرب الشاى بالنعناع، يا سبحان الله، الجمال موهبة، والجميلة موهوبة كالشاعر والموسيقى والممثل والرسام، والجمال هو أعظم المواهب جميعا، ومن قال غير ذلك فهو عاجز أو قصير الذيل أو عديم الذوق أو عديم الإحساس. ولا يكفى أن تكون موهوبا فقط، بل يجب أن تكون موهبتك من أغلى قماش، ودائما هناك موهبة رخيصة وموهبة غالية، آرثر ميلر كان يبيع المسرحية بمليون دولار، والمؤلف عبدالسميع الجاموسى

يتقاضى مائة جنيه في المسرحية. وموهبة زيزى من نوع موهبة أرثر ميلر، لو لم تكن تعمل مع حميدو، ولو لم تكن مشبوهة لقبلت عرضها على الفور، ليست من أجل المرتب ولكن من أجل أن استمتع بجمالها على الدوام، لا أعرف في أي شيء سرحت بعيدا، ولكنى عدت إلى نفسى بعد أن شعرت بأصابعها تمسح جبهتى بمنديل ورق. واكتشفت إننى حلقت بعيدا أثناء سرحانى، وأننى أتصبب عرقا، ضربت يدى فى جيبى وأخرجت المسبحة الغالية ورحت أتمتم على صوت حباتها باسم الله. وابتسمت زيزى وقالت:

– أهو أنت دلوقتى بقيت السطة على الشغل معانا، إحنا أصلنا بنشتغل بالاقتصاد الإسلامى. بس دا ما يمنعش إن الواحد يفرفش نفسه شوية، يشرب كاس، يسهر سهرة حلوة، الدنيا مش نكد على طول.

عندما بدأنا فى تناول العشاء كان ارتباكي قد أصبح واضحا، وسقطت قطعة من السمك على بنطلونى فسارعت زيزى إلى المطبخ وأحضرت فوطة نظيفة وماء ساخنا وبعض مسحوق غسيل، وراحت تمسح مكان البقعة وقالت وهى تضحك ضحكة ساحرة.

– اللى يشوفك من بره ما يعرفش حقيقتك، أنا يتهيأ لى إنك بتمثل إنك عجوز.

قلت لها :

– ياللا حسن الختام.

قالت ضاحكة :

– ختام إيه وبتاع إيه. دا أنت شباب على طول، على رأى المثل «الدهن فى العتاقى».

الآن.. اكتشفت أنه لا يوجد فى الحياة شيء اسمه الشيخوخة، الإنسان يشيخ بإرادته ويظل شابا بإرادته، وهناك وسائط لابد منها والوسائط أنواع، منها ما يجذب الإنسان إلى الحياة ومنها ما يدفع به إلى القبر، والبنت زيزى تستحق النعمة التى ترفل فيها، فهى من

الوسائل التى تحفظ الحياة.. عرفت الآن لماذا احتفظ الحاج أبو هاشم بشبابه حتى عبر المائة عام. كان يتزوج كل عام هجرى من فتاة فى عمر الورد، ثم يطلقها بمعروف ويعطيها مما أعطاه الله. وكان يعطيها ما يكفيها لسنوات طويلة، ولذلك لم ترفض بنت من البنات طلبه فى أى وقت. كان الحاج أبو هاشم يشترى الشباب والحياة بالفلوس.. ولو كانت مهنة الكتابة تدر أرباحا كتلك التى تدرها تجارة الحديد التى كان يحترفها الحاج أبو هاشم لما ترددت فى اتباع اسلوب الرجل الذى عاش حتى رأى أحفاد أحفاده. عندما انتهى العشاء دق جرس الباب ودخل الحاج حميدو وفى يده سيجار كوبى شهير، وراح يعتذر عن غيابه لان مجلس الإدارة كانت أمامه عدة مشاكل لدراستها، ولم نشأ فض المجلس إلا بعد حل كل المشاكل.

سألته وأنا أعبث فى حبات المسبحة :

– مشاكل زى إيه ؟

– الأمر ما بيخلاش يا سعادة البيه. جايبين شحنة سمك، مركب بحالها.. يعنى حاجة تأكل مصر كلها، وبعدين سعرها خفيف ومشاركة من الشركة فى الأمن الغذائى، تطلع لنا بنت مفعوصة من بتوع الجامعة اللى ما بيفهموش رأسهم من رجليهم، قال إيه، السمك دا ما ينفعش للاستهلاك الآدمى، عجايب، أمال ينفع لإيه؟ هيه الحيوانات رخرة بتأكل سمك ؟

– طيب، وهتعملوا إيه؟

– بكرة إن شاء الله هنبعت سيارة المدير بتاعنا لمدير البنت دى عشان يشوف لنا حل.

– وتفتكر هيشوف حل ؟

– يا سعادة البيه، الناس الكبار عندهم الربط والحل، لكن دى بنت موظفة بتلاتة تعريفة تلقاها ما دقتش السمك فى حياتها، يقوموا يخلوها تتحكم فى رقاب الناس اللى عاوزة تساهم فى الأمن الغذائى.

سكت حميدو فترة قصيرة ثم قال لزيزى، إنت هتسيبيني أموت

م الجوع، أو الحكاية على رأى المثل، من شاف أحبابه نسى أصحابه»؟
ضحكت زيزى واتجهت إلى المطبخ، فالتفت الحاج حميدو نحوى وقال :

– والناس بتقر علينا وبيقولوا بيكسبوا من غير تعب، طيب واللى خلقك أنا على لحم بطنى من ساعة الصبح، ياريت الواحد يرجع تانى لأيام الراحة. والفقر.

قلت له بخبث :

– هيه كانت أيام فقر بس لكن ماكنتش أيام راحة.

– عندك حق، بس الواحد كانت أعصابه مرتاحة وماعندوش قلق.

سكت الحاج حميدو فترة قبل أن يسألنى :

– اتفقت مع الحاجة زيزى، أوعى تكون كسفتها. حاولت أن أتكلم ولكنه أشار إلى بالصمت وعاود الحديث :

– شوف يا سيدى، أنا عندى عرض تانى، إيه رأيك تشتغل مستشار للشركات بتاعتنا؟ أظن مافيش حجة بقى.

قررت أن أترك المسألة معلقة، كنت أتوق إلى رؤية زيزى مرة أخرى، فقلت للحاج حميدو :

– دا عرض مش وحش، بس سيبنى كام يوم أفكر.

عندما عرفت الحاجة زوبة بالعرض الجديد وبموقفى منه، صفقت بشدة، وقالت :

– ألف مبروك.

٨ الحاجة زيزى !

الست المُدَرِّبَة زوجة حميدو أدركت أننى واقع لشوشتى فى غرامها، فراحت تنصب الشباك حول العبد لله.. تليفونات بعد منتصف الليل، ثم همس بصوت مبحوح وبطريقة توحى بأنها مريضة.. سألتها ذات تليفون :

– إنت مالك ؟

– عيانة ومش عارفة أنام.

– عيانة عندك إيه ؟

– عندى حب، والحب يضيع ويكسر الجسم.

سألتها :

– وبتحبى مين إن شاء الله ؟

قالت فى صوت أنثوى مشحون بالرغبة :

– اللى مش حاسس بيه ومطنش.

– معقول الكلام ده، دنا عارف إن اللى بيحبوكى مايتعدوش.

ضحكت ضحكة موحية ثم قالت :

– العدد فى الليمون، وعلى رأى المثل كلنا بنحب القمر، والقمر بيحب مين ؟

وبعدين أنا مش هاضحك عليك أنت راجل عقلك يوزن بلد وأنا ورايا رجالة بالكوم، كلهم عندهم فلوس وعندهم أملاك وعندهم كل اللى

تتمناه أى واحدة ست بس مش اللى أنا عاوزاه.

- غريبة أمال أنت عاوزة إيه ؟

- عاوزة راجل بيفهم وعقله كبير والناس بتحترمه، مش عشان فلوسه لكن عشان شخصيته دا اللى أنا عاوزاه.

- والراجل ده لسه ماجاش فى سكتك ؟

- للأسف جه فى سكتى وقعدت جنبه واتكلمت معاه بس ولا هو هنا بيعاملنى زى العروسة الحلاوة بتاعة المولد.

طيب ما تقوليله بصراحة..

أقوله إيه.. أنا دايبة فى حبك ؟ يا أستاذ : الرجالة بتحس الحاجات دى من لمسة، من نظرة، من كلمة، الحاجات دى مش عاوزة تصريح، التلميح يكفى. ثم أطلقت ضحكة رنت فى أذنى كزغرودة صادرة من حنجرة شابة فى ربيع العمر، وقلت لها فى محاولة للهروب منها قبل أن يفضحنى صوتى الذى أخذ يرتعش ويتكسر بسبب محاولات المرأة المدربة على اصطياد الرجال فما بالك برجل فى مثل ظروفى يزحف نحو الستين، ولم يحصل من طيبات الدنيا إلا على النزر اليسير إلى جانب ما حصلت عليه من المطاردة والقهر والغياب وراء الأسوار عدة سنوات بالإضافة إلى التشرد خارج الحدود فى بلاد الله خلق الله قلت لزيزى تمهيدا لقطع المكالمة :

- إنت باين عليكى فايقة قوى النهاردة وأنا مش قدك ومانمتش بقالى يومين وحاسس إن أنا هانام وأنا باكلمك.

وردت على العبد لله قائلة فى حركة شقاوة مقصودة :

- اللى واخد عقلك يا هناه.

- ياريت كان فاضل عندى حاجة وحد ياخدها..

- طيب أنا هاسيبك عشان تنام بس بشرط..

- أنا تحت أمرك..

- أشوفك بكره..

- لا بلاش بكره..

اردت بهذا الجواب أن أبدو قويا لا أخضع للإغراء.

- طيب إمتى تحب ؟

- خليها يوم الثلاثاء.

اطلقت ضحكة صاروخية من النوع الذى يحيى الموتى، وقالت فى دلال :

- طيب ما هو بكره الثلاثاء.

قلت وأنا أتصنع الارتباك:

- معقول دا أنا وحياتك ناسى احنا يوم إيه النهاردة

- خلاص أنا منتظراك بكره على العشا.

لم أستطع النوم بعد انقطاع الاتصال التليفونى، الحقيقة أننى لن استطيع الإفلات من براثن الحاجة زيزى، والحقيقة الأخرى أننى لا اريد الإفلات من براثنها، والحقيقة الثالثة أن النوم لم يعرف طريقه إلى عيونى بعد أن تحدد موعدى معها، وتأكدت أننى سأجلس إلى جوارها وأتطلع إليها وأشم رائحتها، تمنيت وأنا أتمدد على سريرى لو كنت تاجرا فى سوق الجملة، لو كنت فلاحا من الاعيان، لو أننى كنت منفتحا من بتوع التصدير والاستيراد، ثم ارسلت الصدف هذه المرأة فى طريقى فعشت معها شهورا، أو حتى أسابيع، ثم أضع حياتى وكل ثروتى تحت أقدامها فما هو الهدف من جمع الفلوس إلا استخدامها فى غرض كهذا ؟ ضاع شبابنا فى نظريات شديدة السذاجة عن ضرورة الالتزام إلا بما يفيد الحاضر ويحقق طموحات المستقبل. وعندما مضى قطار العمر اكتشفنا أن كل ما تعلمناه كان خطأ، وكل ما اتبعناه كان باطلا، وأن الحقيقة الوحيدة هى زيزى وما عداها فهو باطل وقبض الريح، ما أكثر الفرص التى مرت بى فى حياتى ولم ألتفت إليها. ومن هو الاقدر ؟ اينشتاين الذى اخترع النسبية ؟ أم حميدكو الذى اكتشف اقصر الطرق لكسب الفلوس؟ وممارسة الحياة اللذيذة ؟ هل أندم على

الحياة التى عشتـها ؟ والقضايا التى اعتنقتها، والمعـارك التى خضتها، والأيام السود التى تجرعت مرارتها فى المنافى والسجون.

●●●

هأنذا أخيرا فى بيت حميدكو، وها هى الغندورة زيزى فى الصورة التى أحب أن أراها عليـها. ومن حسـن الحظ أن حميدو لم يكن هناك، كان مشغولا باجتماع مجلس الإدارة وهو مجلس إدارة يـختلف عن جميع مجالس الإدارات التى عـرفها البشر منذ اختـرع الإنسان نظام الشركات، وإلى أن تفنى الأرض ومن عليها فأحيانا تستمر الجلسة عدة ساعات فى صـخب شديد وصراع أشد.. وأحـيانا يتكلمون جمـيعا فى وقت واحد ولا مستـمع.. أحيانا يغضب أحدهم فيـشخر وينخر ويسب الأخضرين، ثم يقـترب من العضو المنافس ويهبـده بالدماغ أعلى أنفه، ثم ينشغل الجمـيع بعد ذلك بتضميد جراح عـضو مجلس الإدارة، وفى أغلب الأوقـات تنتهى الجلسة فى المستـشـفى أو فى قسم الشـرطة. وجلست زيزى ورائحة عطرها النفاذ تشع فـى أرجاء الحجرة، وراحت تحكى لى عن همومها، وكـيف أن حميـدو لم يعد يهتـم بها، اهتمـامه أصبح أكبر بالفلوس وبأحوال الشركة ثم قالت فى أسف حقيقى :

– أنا زهقت مـن العـيـشـة دى، أنا مش عـاوزة دهب ولا هدوم ولا فسح ولا أى حاجة أنا عـاوزة راجل يرعانى ويحمينى وأتعلم منه.. كل قسمتى من الرجالة كانوا بيفكوا الخط بالعافية . ثم قالت :

– أنا صـحـيـح مـا عنديش غـيـر الابتـدائيـة لكن القـراءة فى دمى وعاوزاك تكتبلى أسماء بعض الكتب عشان أشتريها.

ونهضت على الفـور وعادت معهـا ورقة بيضـاء وقلم قدمتهـما لى وجلست فى مـواجـهـتى فى انتظار تحـرير قـائمة الـكتب التى أنصح بقراءتها.

ورحت أسألها عن نوع الكتب التى تحب قراءتها فأجابت :

– أحب التـاريخ عشـان فيـه حكايات حلوة ومواعظ أحـسـن وأحب

كمان القصص والروايات اللى تملأ الدماغ.

قضيت عدة دقائق أفكر فى الكتب التى اقترح عليها شراءها، وكتبت فى القائمة جزءا من تاريخ الرافعى وعدة كتب للرحالة محمد بك ثابت ثم عدة روايات لإحسان عبدالقدوس ويوسف السباعى وأمين يوسف غراب وعبدالحليم عبدالله وعندما ألقت نظرة خاطفة على القائمة قالت وهى تضحك :

– همة دول شوية الكتب اللى طلعوا من ذمتك.

– دول وجبة سريعة ولما تخلصيهم هاكتبلك تانى.

– وهوه إحنا بنشوفك وأنت التقل عندك صنعة.

اعتذرت لها بمشاغلى الكثيرة إلى درجة أنى لم أحصل على إجازة منذ عشرات السنين ويبدو أنها لم تقتنع بما قلته فاقتربت منى أكثر وقالت:

– تعرف تقولى مشغول فى إيه ؟ وأنت بتكتب كلمتين وتبعتهم مع السواق بتاعك.

ثم أضافت :

– انتو كده يا بتوع الجرائد زى أم العروسة فاضية ومشغولة ثم اقتربت أكثر وقالت :

– أنا عوزاك تفضالى شوية أنا حاسة أن أنا ضايعة ووحدانية ومفيش حد ورايا.

قلت لها وأنا أحاول تركيز نظارتى الطبية حول عينى :

– أنا تحت أمرك وفى أية فرصة تحتاجينى فيها هتلاقينى معاكى.

– أهو إحنا ما بناخدش منكو غير الكلام، وعلى كل حال أنا كنت عاوزاك تشتغل معانا عشان تبقى جنبى، بس أنت مافهمتش قصدى ويمكن تكون فهمت قصدى وعملت طناش.

– أنت عيبك الوحيد يا حاجة زيزى إن كل الناس عندك بتراوغ وتكذب.

– لا يا أستاذ دا مش كدب واتقل بس.
– أنا يا ستى عجزت قوى على الكدب والتقل والحاجات دى.
حدجتنى زيزى بنظرة فاحصة ثم قالت بدلع :
– أنت عجزت عينى عليك باردة وانت اللى يشوفك يقول دانت لسه ما دخلتش دنيا.
ضحكت أنا ضحكة مجلجلة ثم قلت :
– على رأى المثل من بره هلا هلا ومن جوه يعلم الله.
ضحكت زيزى ثم نادت على الخدم وطلبت إعداد العشاء، واعترضت وطلبت من زيزى أن ترجىء مسألة العشاء حتى يحضر الحاج حميدو ولكن زيزى أصرت على تناول العشاء قبل حضور حميدو وقالت :
– ما أنا قلتلك حميدو اتجوز الشركة.. أنا بقالى أسبوعين ما شفتش وشه. دا حتى الصبح بيصحى بدرى ويفطر لوحده ويمشى.
شعرت ببعض النفور بعد العشاء فاستأذنت فى الانصراف ففوجئت بزيزى تقول فى صراحة وبوضوح :
– إنت محتاج لتدليكة حلوة.
وضحكت أنا وقلت لها :
– الاسبوع اللى فات رحت النادى وخدت حمام ودلكونى لكن التعب استمر.
قالت : طيب جرب تدليكى وبعدين ابقى احكم.
ونهضت من جلستها ومدت أصابعها وراحت تدلك قفاى وأعلى ظهرى وكتفى ولا اعرف كيف شعرت براحة شديدة إلى درجة أننى تمنيت لو أنها قامت بتدليك جسمى كله كما تمنيت أن تستمر فى تدليك المنطقة التى اختارتها إلى ما لا نهاية.. صدق من قال إن النساء لسن كلهن من صنف واحد، زيزى مثلا ليست كغيرها من النساء ولو كانت من اليابان لاصبحت من فتيات الجيشا امرأة مدربة على لقاء الرجال واستضافتهم والحديث معهم واللعب بعواطفهم وخيالهم. وهى مرتبة

لا تصل إليهـا المرأة بالتدريـب فقط ولكنها تحـتاج إلى موهبـة أيضا.. شعـرت بالراحة فـعلا لأن أصابع زيزى كـانت أشبه بـعازف عبـقرى تعرف طريقـها إلى المواقع التى تصـدر عنها أجمل الألحـان ويبدو أن زيزى رأت علامات البهجة ترتسم على وجهى فقالت تسألنى :

– إيه رأيك بقى ؟

– يا سلام دا إنت عملت معجزة.

– أمال تقول إيه لو دلكتلك ظهرك ؟

– وهل هذا ممكن ؟

– مش ممكن ليه فيه حد قاعد معاك إنت خايف منه ؟

– قاعد معايا فين ؟

– فى البيت..

– إحنا هانتقابل فى البيت قريب ؟

– إذا ما كانتش عندك مانع ؟

– لا أنا قصدى أقول إنت حتتنازلى وتشرفينى فى البيت ؟

أنا مش هاتنازل ولا حـاجـة، أنا ها تشرف بزيـارتك وكان نفـسى أزورك من زمـان عاوزة أشـوف المكان اللى بتـقرا فـيـه والمكان اللى بينزل عليك فيه الوحى لما تيجى تكتب.

– يا ست الحسن والجمال تشرفى بس نعرف الميعاد عشان نفرش رمل فى الشارع كله.

ضـحكت زيزى ضحكة رقـيـقة لم أتمـالك نفـسى وفقـدت توازنى وتخليت عن وقارى.

وتركت لأصابـعى حرية العبث فى شـعرها، ثم تجـرأت أكثـر فلما قاومـتنى قالت لى وقـد بدا عليها الغـضب والتأثر لدرجـة أننى لمحت دموعا فى عينيها :

– أنت دايما بتعمل كده ؟ هوه مزاجك إنك تاخد بالعافية.

شعـرت بالخجل فاعـتذرت عما بدر منى وابديـت لها ندمى وتعللت

بأن ما حدث من جانبى دليل على شدة تأثيرها الذى أفقدنى الاتزان والوقار، وهى المرة الأولى التى أخرج فيها عن شعورى إلى هذا الحد، ورسمت ابتسامة على شفتى وقلت :

– ما بدر منى الليلة دليل على قوة تأثيرك، فأنا ودعت الشباب منذ فترة طويلة. استأذنت وغادرت الصالون وغابت فترة، واكتشفت عند عودتها أنها استبدلت ملابسها بملابس أكثر إثارة.. كانت تمسك بين أصابعها بورقة بيضاء فولسكاب وقلم وقالت :

– اعمللى بقى الخدمة دى.

التقطت الورقة والقلم وقلت لها :

– عاوزة إيه ؟ كتب جديدة ؟

ردت بهدوء :

– لا، حميدو بك فاهم إن أنا مؤلفة وعاوزنى أكتب له إعلان عن المدينة السكنية الجديدة بتاعة الشركة واسمها مدينة زمزم.

– زمزم مرة واحدة، وعاوزانى أكتب أقول إيه ؟

ضحكت وهى ترعش حاجبيها وقالت أنا اللى حقولك برضه، أنا أقول للأستاذ الكبير، المهم تقول فيها حمامات سباحة وسوق وجناين وحديقة أطفال وسينما وملاهى وشوية كدة من البكش اللى إنت عارفه، بس أكتب إنت وأنا هانقله بخط إيدى عشان حميدو ينبسط . ووجدت فى كتابة الإعلان خروجا من الورطة التى أوقعت نفسى فيها وغادرت مقعدى وجلست على مائدة الطعام وانهمكت فى كتابة الإعلان وعندما انتهيت من تحرير الإعلان سلمتها الورقة واستأذنت فى الانصراف فقالت بدلال :

– تمشى وإنت فى الحال ده ؟

– أمال عاوزانى أعمل إيه يعنى ؟ أنام هنا ؟

– وفيها إيه يعنى ؟ ما إنت فى بيتك برضه.

ثم جذبتنى من يدى وأجلستنى على الكنبة الفاخرة ثم راحت تمارس معى نفس العمل الذى قامت به من قبل راحت تدلك عنقى وكتفى وأعلى ظهرى فلما اقترب وجهها من وجهى تضاعفت متعتى كثيرا عندما شعرت باستجابة زيزى، ولكنها انتزعت نفسها فجأة وبقوة وراحت تسوى شعرها بأصابعها وتصلح من شأن فستانها القصير، وتصورت أنها غضبت مرة أخرى، ولكنى فوجئت بدخول حميدو، وبدا علىّ الاضطراب ولكنه رحب بى بحرارة شديدة واعتذر عن تأخره بسبب انشغاله فى أعمال الشركة وخشيت أن يكون حميدو قد لمح أى تغيير فى هيئتى أو على شكلى ولكنى لم ألمح من تصرفاته أى دليل على ذلك وقد ابتهج كثيرا عندما ابلغته زيزى بنبأ تنازلى وقبولى تحرير الإعلان عن مدينة زمزم وقال وهو يكاد يطير من الفرحة :

يا سلام، دى هتبقى مدينة مبروكة بحق وحقيق طب تعرف سيادتك الطلبات اللى عندنا ضعف بيوت المدينة، عشان كده هنتقبل طلبات الناس اللى هتدفع فورى، والناس التانيين هيطبق عليهم قانون اللى مامعهوش مايلزموش!

ثم ضحك ضحكة طويلة ساخرة وقال :

على فكرة يا أستاذ الناس معاها فلوس زى الرز بس حطينها تحت البلاطة والناصح بقى هو اللى يخليهم يطلعوها، ثم نظر نحوى وقال:

أنا مزاجى بقى أحجزلك فيلا فى المدينة، حاجة يا أستاذ زى الجنة بالضبط، وفاحتين فيها بير بيطلع ميه زى العسل، واتفقنا نعمل مصنع صغير وناويين نبيع الميه فى السوق ونسميها مية زمزم إيه رأيك أحجزلك فيللا ؟

– وبكام الفيلا يا حج حميدو ؟

– نص مليون بس ونهار ما يكمل المشروع هتساوى الفيللا ثلاثة

مليون بالميت.

عندما لم يسمع منى جوابا سألنى فى لهفة :

إيه رأيك أحجزلك الصبح ؟

أجبته بدون حماس :

ماتعملش حاجة إلا لما أقولك.

وبالرغم من الإجهاد الذى يبدو عليه فقد نزل معى إلى الشارع ولم يتركنى إلا بعد أن انطلقت بسيارتى عائدا إلى المنزل.

٩ المحاكمة

– اسمك إيه؟

لم أتوقع توجيه مثل هذا السؤال لي، فأنا كاتب معروف منذ نصف قرن، ليس في مصر وحدها، ولكن في كل أرجاء العالم العربي. وتمت ترجمة أكثر من كتاب لي إلى اللغات الأجنبية، ولكن لا بأس، فهي تجربة على كل حال.

– عملك ؟

● وهل يوجد أحد في الدنيا لا يعرف عملي؟

أنا الكاتب والأديب والناقد الكبير، الذي أشعلت المعارك واقتحمت الصعب ونمت في السجون سنوات في سبيل ما أؤمن به، ومع ذلك لا بأس، فهي تجربة على كل حال.

– ما علاقتك بالمدعو حميدو؟

● لا علاقة لي به على الإطلاق، كل ما هناك أنني كنت أتعامل معه في فترة من الفترات فقد كان يمسح الأحذية في قهوة كتكوت وكنت أنا من زبائنها الدائمين، هذا كل ما هناك.

– ولكني أسألك عن علاقتك به الآن بعد أن صار من كبار رجال الأعمال وأصبح نجما من نجوم المجتمع.

● لا شيء على الإطلاق، كل ما هناك أنه جاء ذات مرة إلى القهوة وحدثني في شأن شركته التي على وشك إنشائها وعرض عليَّ أن

أشاركه فى مشروعه، واندهشت جدا لهذا العرض، وفكرت فى أن أرده ردا عنيفا، ولكن صرفته بهدوء وانتهى الأمر.

– ألم تحضـر لك زوجتـه وذهبت معـها إلى كازينو شـاطىء النيل وعرضت عليك الاشتراك فى المشروع؟

● أظن أنه حدث شىء من هذا.

– تظن أم حدث بالفعل ؟

● حدث بالفعل.

– وماذا كانت النتيجة؟

● صرفتها بمعروف أيضا واعتذرت لها.

– ولمـاذا وقع الاخـتـيـار عليك أنت بالذات للمـشـاركـة فى هذا المشروع؟

● لا أعرف ولا أدرك نواياهم الحقيقية فى هذا العرض المشبوه.

– لماذا وصفت العرض بأنه مشبوه؟

● لأن شخصا مثل حميدو كان لابد أن يعلم أننى لن أقبل الاشتراك معه فى أى عمل مهما كانت الظروف.

– ولماذا لا تقـبل الاشتراك فى مشـروع حميدو وهو عـمل تجارى مشروع؟ هل أنت ضد الانفتاح؟

● أنا لست ضـد الانفتـاح ولا مع الانفتـاح، وأرى أن هذا الانفتـاح، أفاد مصر من بعض النواحى، كما سبب لها الضرر فى نواحى أخرى.

– ما هى أوجه الضرر وأسبابها ؟

● لأن الانفتاح سمح لبعض الشوائب من شاكلة حميدو للظهور على قمة المجتمع عن طريق قروض هائلة من البنوك لإنشاء شركة توظيف أموال، مع أنه لا يفهم فى شىء إلا مسح الجزم.

– ولكن هناك الكثير من ملوك التجارة والمـال بدأوا حياتهم بأعمال تافهة مثل حـميدو فى مسح الجزم وتوزيع الجرائد وغـسيل الصحون والمطاعم.

● هؤلاء ظهروا فى مـجتمعـات تختلف كثيـرا عن مجتمـعنا، فهناك طلبة فى جامـعة أوكسفـورد يعملون فى غسيل الصحـون وهناك طلبة فى جامـعة هارفارد يـقومون بجـمع الزبالة. ومقارنـة حميدو بهؤلاء ليست من المنطق فى شيء.

– أنت تقول أنك رفضت الاشتراك مع حـميدو رغم أنه عرض عليك العمل معه، وأيضا السيدة زوجته.

● نعم، هذا حدث.

– لماذا عدت وقبلت العمل معهم بعد ذلك ؟

● أنا لم أقبل العمل معهم فى أى وقت.

– ألم تذهب إلى بيت حميدو أكثر من مرة؟

● نعم ذهبت مـــرة فى زيارة خـاطفـة، ولم أمكـث هناك إلا فـتـرة قصيرة من الوقت.

– قررت زوجـة حميـدو أنك قمت بزيارتهم فى الـمنزل ثلاث مرات وقضيت السهرة هناك وتناولت معهم طعام العشاء.

● أنا لا أتذكـر عـدد المـرات، ويخيـل إلىّ إنى ذهبت مـرتين وإننى تناولت العشاء مرة.

– ما سـبب قيامك بهذه الزيارات إذا كـنت قد رفضت العمل مـعهم، وأنك لا تعرف حميدو إلا كماسح أحذية فى قهوة كتكوت؟

● فى الواقع أنا ذهـبت إلى منزله تحت الحـاح الـسـيـدة الفـاضلة زوجتـه لدرجة التـوسل، وتصورت أنهـا تريدنى فى مـسألة إنسـانية تخصها، ولذلك قررت الذهاب إلى المنزل.

– زوجة حـميـدو قررت أنها اقنـعتك فى تلك الزيارات بالاشـتراك معهم؟

● هذا محض افتراء. لقد زرتها بالفـعل وقضيت معها بعض الوقت. كان لديها مشكلة وسـألتنى النصيحة وهذا كل ما فى الأمر.

– هل تذكر هذه المشكلة التى كانت تعانى منها ؟

● لا، لا أذكر الآن.

– ولكنها تـقول أنك وافقت على الاشـتغال مـعهم وبراتب شـهرى قدره عشرة آلاف جنيه وأنك اديت بالفعل بعض الأعمال.

● هذا محض افتراء وكذب صريح.

– طيب.. ما رأيك فى هذه الورقة ؟

وأخرج من مكتبه ورقة وقدمها للأستاذ.

– ما هذا ؟

– هل هذا خطك ؟

أخرج الأسـتاذ نظارته الطبـية من جـيبه وثبـتهـا على أرنبة أنفـيه وتفرس فى الورقة ثم قال :

● ما هذا ؟

– أنا الذى أسالك وعليك أنت الجواب، هل هذا خطك ؟

● الواقع لا أستطيع أن أقطع بأنه خطى من عدمه، ولكن الذى أذكره أنها طلبت منى فيما يشبه التوسل أن أكتب لها صيغة إعلان لأن حميدو طلب منها ذلك، باعتبارها قطعت مـرحلة من مراحل التعليم، ولما كانت غير مـستعدة وغـير قادرة وغيـر مؤهلة، فقد طلبت منى إنقـاذها حتى لا يغضب منهـا حمـيدو وأظن أننى كتـبت لها الإعلان لـكى انقذها من ورطتها.

– وهل من عادة أستاذ كـبير مثلك أن يقبل كتـابة مثل هذه الأعمال التافهة إذا توسل إليك أى أحد ؟

● فى الواقع أن الليلة التى سـهـرت فيـها مـعهـا كانت لهـا ظروف خـاصة، فـقـد كنت أشعـر بضـيق لوجودى فـى هذا المنزل، ولم يكن زوجها حاضرا فشعرت بالقلق، وخشيت أن تكون هذه الزيارة هى أحد الاعيب حميدو لتوريطى فى أمر ما، وقبلت أن أكتب لها هذا الكلام لكى أتمكن من الخروج ومغادرة المنزل.

– قرر حميدو أنه حـضر متأخرا إلى المنزل بعد حضـوره اجتماعا

لمـجلس الإدارة ووجـــدك هناك مع الـحـاجـة زيزى، وكـنـت مـرتاحـا ومطمئنا، بدليل أنك جلست معهما حتى ساعة متأخرة من الليل.

● في الـحـقيقـة أنا لا أذكر شـيئـا الآن من تفاصـيل هذه السـهرة، وما قررته الحقيقة بعينها.

– مـا رأيك في أننا ضـبطنا في أوراق الشـركة اسـمك في كـشف المرتبات ومثبت أمامه أنك تتقاضى عشرة آلاف جنيه في الشهر؟

● هذا اختلاق وتزوير، لأنني لم أتقاض مليما واحدا منهم.

– ولكن حـميدو وزوجـتـه الـحـاجـة زيزى ذكـروا في التحقـيق أنك تقاضيت مرتب سنة كاملة تحت الحساب.

وهنا ثار الأستاذ وضرب المائدة بكفه وصرخ بأعلى صوته.

● أنا رجل شريف ولم يدخل جـيبى مليم واحد من هذه الشـركة أو من غيرها، وأنا مدين وأسألوا البنك الذى أتعامل معه، ولو كنت من هذا النوع الرخيص لجمعت الملايين.

وحاول المحقق أن يهدىء من ثورة الأستاذ وقال :

– كل ما أسـعى إليه هو إظهار الحقـيقة، ويهمنا أن نبرهن على أن صفحـتك بيضـاء من غير سـوء، فأنت من رموز الأمة وأحـد ضمائرها الحية، ولكنا نريد إظهار الحقيقة.

ولسنا في خصومة مع أحد.

وطلب المـحـقق فنجان قـهـوة للأسـتـاذ، ولكن الأسـتـاذ أعتذر، كـما أعتـذر عن استـمـرار التحـقـيق وطلب تأجيله إلـى وقت آخر واسـتـجـاب المـحقق لطلب الأسـتـاذ على الفور، وأمر كاتب النيابة بإغـلاق المـحـضر في ساعته وتاريخه على أن يستأنف التحقيق بعد أربعة أيام.

وإنصـرف الأسـتـاذ وهو لا يكاد يرى الطريق تحت أقـدامـه، كـان مضطربا وعصبيا وشديد الغـيظ. كيف استطاعت الحاجة زيزى الإيقاع به على هذا النحـو، وهل هو سـاذج إلى هذا الحد، لقـد قضى عـمره كله مهمـوما بقضايا الوطن، فكيف وصل به الحال إلى اسـتـدراجه إلى هذا

الفخ بتدبير مـاسح أحذية وزوجته التى كانت قطاعا عـاما على أرصفة القاهرة فى يوم من الايام وهل الـرأسمالية مـتوحشـة إلى هذا الحد، لا ترعى حرمة ولا تعمل حسابا لكائن من كان؟

ولكن حـميدو وزوجته ليسا من الرأسمـاليين، إنهما مـجرد زبالة، والسقـوط فى هذه الهاوية كان بسببـه هو وليس بسبب الآخـرين، لقد خانته شيخوخته ولعبت بأعصـابه المرأة الفاجرة زوجة حميدو وقادته إلى مصرعـه بفضل بعض الحركات التى ذكرتـه بشبابه الذى ولى منذ زمن طويل، المأساة أنه نسـى نفسه وتوهم أنه فارس مغوار وأنه محل رعاية واهتـمام ومطاردة الحاجة زيزى ولكن هل يلوم الحـاجة زيزى؟ لقد كانت الـبنت تقوم بدور مرسوم فى مـسرحية من تاليف حـميدو، واتقنت دورها إلى الحد الذى جعل الأستاذ يتخيل أن زيزى تقوم بدور حقيـقى على مسرح الحيـاة، وهذا ما اضعفه عندمـا وقع فى الفخ بهذه السهولة. إن مـا حدث له ليس فضيحـة فقط ولكنها فضيحـيـة ومأساة، فهو مرتش قـبل مائة وعشرين ألف جنيه، لقد كان يتـوقع خلال حياته الطويلة أنه سـيقع فى فخ من هذا النوع، ولكن تقـديره أنه كان سـيقع فى الفخ نتـيجة تـدبير محكم مـن أجهزة مـدربة على مثل هذا الـعمل، ولكنه وقع أخيرا فى الفخ بسبب مؤامـرة من تدبير ماسح أحذية سابق فى قهـوة كتكوت وزوجـته التى كـانت تعرض لحـمها الرخـيص على أرصفة القاهرة، وأوقعت من ؟

الكاتب الجهبذ والمفكر الكبـير والناقد الذى يخشى قلمه كل الأدباء. وصل الأستـاذ إلى منزله والقى بنفسـه على مقعـد فى الصالون وراح يدخن السيجارة تلو السـيجارة، كان مهمومـا بحق، وكان يشعر بالنار تأكل قلبه وعقله، ماذا يمكن أن يفعله الآن لكى يمسح وصمة العار هذه من تاريخه، لا شيء يمكن أن يمحو هذا العار إلا قـتل حميدو وزوجته، ولكنه لو فـعلها سـتكون الفضـيحـة أكبر وأعم، وسيـعلم الجمـيع أن الأستـاذ الخطير سـقط فى فخ ماسح الأحـذية، يالها من نكتـة بايخة،

ولكن سيضحك لها الجميع، وهو يذكر الآن يوم وقع فى قبضة الانجليز وقادوه إلى معسكر أعتقال فى منطقة فايد، ولمح الغدر فى أعينهم، ولكنه لم يهتز لحظة واحد، ويذكر أيضا يوم أخذوه إلى معسكر الاعتقال فى الصحراء الغربية وكيف أهانوه وعذبوه ومع ذلك لم يهتز لحظة واحدة، ويذكر أيضا يوم حاكموه أمام محكمة عسكرية استثنائية وحكموا بإعدامه وخفف الحكم بعد ذلك إلى الاشغال الشاقة، ومع ذلك لم يهتز لحظة واحدة، ها هى الأيام تدور به ولا يجد مخرجا لورطته الحالية إلا بقتل هذا الكلب حميدو والسيدة حرمه.

ولكن يستحق ما جرى له وما سوف يجرى عليه كان ضحية ماسح أحذية، ولكن هل صحيح أن حميدو ماسح أحذية؟ لقد ضحك على الناس وضحك على البنوك وضحك على الدولة.

واستدرج الأستاذ إلى فخ لا يجيد نصبه إلا الابالسة والشياطين. هل هو صحيح ماسح أحذية؟ أم هو ملك المرحلة وفيلسوف الوقت ومفكر الزمان. ونام الأستاذ على مقعده، وفى الصباح كان نعيه يحتل الصفحة الأولى من كل الجرايد الكبرى وكل الجرائد الصغرى. مات الأستاذ بعد حياة حافلة أمضاها فى خدمة الفكر والأدب والكتابة، وعاش حياته فى خدمة قضايا الوطن ومات من أجلها!!



ابن الدايرة!

عندما جاء سعد توفيق إلى قهوة كتكوت لأول مرة في حياته كان في الثامنة عشرة من عمره، وكان قد انتهى من دراسته الثانوية واستعد لدخول الجامعة ودراسة المحاسبة في كلية التجارة، ولكن هذه الدراسة لم تكن تستهويه، ولكنه كان يحلم بأن يكون نجما سينمائيا يشار إليه بأقلام النقاد، فقد كان وسيما على نحو ما، وكان وجهه مستديرا كوجه حسين صدقي وشعره كشعر أنور وجدي فهو ناعم ولامع وغزير، وكان يحلم بأن يصبح نجما سينمائيا لأنها المهنة الوحيدة التي بمقدورها الانتصار على نقطة ضعفه الوحيدة وهي خجله الشديد من صنف النساء وشعوره بالنقص في حضرتهن. لذلك تتصور بعض الفتيات احيانا أنه أبكم، وبعضهن يخطئن التحليل فيعتقدن أنه شديد الغرور، مع أنه - يعلم الله - لا هذا ولا ذاك. ولكنه يشعر أحيانا عندما يجلس معهن أنه يتمنى لو عاد إلى بطن أمه. وإن كان ذلك الشعور لا يمنعه من اختلاس النظرات بين الحين والآخر للاستمتاع بما جادت به الطبيعة عليهن. شيء واحد فقط كان يفسد عليه أحلامه وهو قصر قامته. كان سعد توفيق قصيرا إلى درجة ملحوظة، لم يكن قزما ولكنه كان أقصر من الرجل العادي. ولكن النجم العالمي جيمس كاجني كان أقصر منه بالتأكيد، والنجم العالمي ميكي روني كان قزما. ولكن هل ينجح في تحقيق أحلامه فيصبح نجما

سينمائيا في قادم الأيام؟ عندما وقع بصره ذات مساء على بعض الأدباء المشاهير في الركن المخصص لهم بقهوة كتكوت تمنى أن ينضم إلى مجلسهم، ولكن هذه الأمنية تحولت إلى رغبة محمومة وهدف منشود عندما رأى المخرج المعروف أحمد خطاب يجلس معهم، صحيح أنه مخرج إذاعي، ولكنه قدم عدة تمثيليات إذاعية اشترك فيها عدد من النجوم المشاهير. ولكن خجله الطبيعي منعه من اقتحام مجلس الأدباء، حتى كان مساء عندما جاء إلى القهوة نجم مسرحي شهير، ثم كانت اللحظة التاريخية عندما جاء إلى القهوة نجم الغناء عبدالغني السيد، لابد من الانضمام إلى جلسة الأدباء بأى ثمن وبكل ثمن. كان الكاتب الشهير عشماوى هو بداية سعد توفيق إلى عالم الأدباء. وكان عشماوى قد حقق شهرة لا بأس بها عن طريق نشر انتاجه الأدبي على صفحات جريدة المصرى أوسع صحف مصر انتشارا وقتئذ. وكان في الوقت نفسه يعمل موظفا بمديرية التعليم، وكان يسكن في نفس الشارع الذى يقع فيه بيت سعد توفيق.

وعن طريق صاحب مكتبة تقع بجوار قهوة كتكوت تم ترتيب اللقاء بين سعد والأستاذ عشماوى، وقدم سعد نفسه لعشماوى على أنه كاتب على أول الطريق ولديه محاولات يريد أن يستطلع رأى الأستاذ فيها، وتناول عشماوى كراسة كتب فيها سعد محاولاته ووعده بقراءتها وإبداء رأيه فيها خلال أيام، وتواعدا على اللقاء في قهوة كتكوت، وهكذا أصبح سعد من أعضاء جلسة الأدباء وثبت أقدامه في القعدة وأصبح من نجومها فقد كان ميسورا، واستطاع خلال شهر واحد أن يقيم مادبتين عامرتين لأعضاء الجلسة الأدبية، وكان لسعد أم في الخمسين من عمرها سيدة مجتمع وتحتفظ بقسط من الجمال الذى بهر الناس يوما ما، وسرعان ما وقع الشيخ عبدالمجيد في هواها، صحيح أنه كان غراما من طرف واحد، ولكن الشيخ عبدالمجيد كان فارسا من فرسان هذا اللون من الغرام، وكثيرا ما كتب أشعارا في

محبوبته التى لا تعلم شيئا مما يجرى حولها. المهم أن الصلات توطدت بين سعد وبين أغلب أعضاء شلة الادباء. كان الأستاذ سعفان يجد ضالته عند سعد فى عمليات الاقتراض التى اعتاد عليها لحل مشاكله المتعددة، وكان الأستاذ عبدالستار يلجأ إلى سعد كلما احتاج إلى الذهاب لمشاويره المتعددة فى أنحاء القاهرة، وكان الشيخ عبدالمجيد حريصا على زيارة سعد بين الحين والآخر فى منزله لكى ينعم بلقاء السيدة والدته لدقائق معدودة!

وهكذا صار سعد عضوا أصيلا بالشلة مما سمح له بمصاحبتهم فى زيارة النجوم والموسيقيين المشاهير فى بيوتهم، فسهر عدة سهرات ممتعة فى بيت الأستاذ الموسيقار الريانى، وتناول طعام العشاء فى بيت الصحفى الكبير الرافعى، ودعى مرة لحضور الحفل الغنائى الكبير للمطربة الشهيرة فاتن سعيد، وعندما تعرف على المخرج السينمائى الكبير أحمد عرفه كاد يطير فرحا، فقد حانت الفرصة ليضرب ضربته الكبرى. وكان أحمد عرفه يمر بضائقة مالية شديدة بعد فشل فيلمه الأخير. وقد وجدها فرصة سانحة للخروج من أزمته عندما أشار إليه سعد بأنه على استعداد للمساهمة فى الإنتاج إذا توافرت له فرصة للظهور فى فيلمه القادم. ونجحت محاولات الاختبار التى أجراها أحمد عرفة للوجه الجديد سعد، وكان وجهه صالحا للتصوير بدرجة كبيرة، وهى مسألة يتدخل الحظ فيها بنسبة كبيرة ، فكم من وجوه مليحة تظهر قبيحة على الشاشة، وكم من وجوه دميمة ليس أجمل منها فى الصورة، ومن حسن حظ سعد أن وجهه الجميل ظهر جميلا على الشاشة ولكن سعدا ـ لسوء الحظ ـ لم يستطع أن ينطق حرفا واحدا من الكلام الذى لقنوه إياه لكى ينطق به عندما دارت الكاميرا لتصويره. وأصيب بالكتمة عندما وقفت الفاتنة سناء طاهر امامه، وضاعت كل محاولات المخرج فى تثبيت أقدامه، وهكذا انهارت كل أحلام سعد فى مشهد درامى عنيف.

عندما تأكد لسعد أن حلمه القديم قد تبخر وأن أمله في أن يصبح نجما سينمائيا هو عشم إبليس في الجنة. كان قد تخرج في الجامعة بدرجة مقبول وأصبح في النهاية محاسبا قانونيا ويمكنه العمل في دوائر الحكومة براتب شهرى يقل عن عشرين جنيها. ولكنه رفض الوظيفة وافتتح لنفسه مكتبا للمحاسبة في العمارة نفسها التي تحتل قهوة كتكوت الدور الأرضى بها. وأصبح يظهر نادرا في ركن الأدباء بعد أن تأكد فشله في أن يصبح نجما من نجوم السينما.

ولكن طموح الإنسان للظهور في مجال ما يكون عادة تعبيرا عن طموح عام، يمكن أن ينتقل بصاحبه من مجال إلى مجال. لذلك بدأت أعراض الاشتغال بالزراعة تظهر على المحاسب سعد توفيق. ولكنه وأثناء تفكيره في مشاريعه الزراعية جاءه عرض غريب. عرض عليه أحد الصيادلة أن يظهر في إعلان عن دواء جديد يقضى على ظاهرة الصلع، فيظهر في صورة وهو حليق الشعر، ثم يظهر في الصورة الثانية بشعره الجميل، وسيكون هذا الإعلان خير دعاية للدواء الجديد، وعرضوا عليه مبلغا من المال كان كبيرا بعملة ذلك الزمان، ورفض سعد عرض الصيدلى لأنه لا يقبل أن يقوم بحلق شعره مهما كانت الأسباب والمبرارات ولكنه عاد فقبل عندما عرف أنه ليس مضطرا إلى حلاقة شعره لأنهم قادرون على إظهاره بصورة الأصلع عن طريق عمل مكياج متقن له.

وضربوا له مثلا بأحدب نوتردام، الذى ظهر فيه الممثل العالمى الشهير شارلز لوتون على صورة أحدب وأعور وأقرع ولم يكن به شيء من هذا على الإطلاق. سر سرورا عظيما وشعر بزهو شديد عندما رأى سعد صوره في أفيشات كبيرة على جدران العمارات وفى مساحات لا بأس بها على صفحات الصحف، وفى الجريدة المصورة التى تعرضها دور السينما قبل عرض الفيلم مباشرة لقد صار نجما سينمائيا ولكن دون كلام. ولو ظهر سعد في أيام السينما الصامتة

لكان أعرض شهرة من شارلى شابلن.

لأنه وسيم بدرجة كبيرة فى الصـورة وبشكل لم يكن سعد يتوقعه. وكانت الفتيات تتوقف عند صورته المثبتة على الحوائط وتتفرس فيها بإعجاب شديد.

ولكن إحسـاسا ما داخل سـعد يجعله ينفـر من هذا العمل ويرفض الاسـتمـرار فيـه. شعـر سعـد بأنه اشترك فى عـملية نصب لخـداع الجماهير. فهـو فى واقع الأمر ليس أصلع، كما أنه لم يتناول ولو قطرة واحدة من هذا الدواء المعجزة، الذى اخترع تركيبته الصيدلى إياه. إنها جريمـة نصب تتوافر لها كل الأركـان التى تؤكد تجريمهـا. ولذلك قرر سعـد أن يكف عن المـضى فى هذا الطريق مهـما كـانت المكاسب التى سيـحصل عليها. وبدأ طمـوحه ينحرف إلى وجـهة أخرى، فقـد ظهرت أعراض السياسة على سعد توفيق. وكان فى المرات القليلة التى يجلس فـيهـا فى ركن الأدباء يدخل فى نقـاش حاد مع البـعض حول أحـوال البلاد ومستقبلها، ولكنه كان حريصـا على أن يحدد موقفه كمستقل لا عـلاقة له بحـزب من الأحـزاب، كـان سعـد يفـضل أن يكون فى مكان محايد بين الـجميع باعتبـار أن خير الأمور الوسط، وكـانت مصر على أبواب معركة انتخابية بعد إقالة حكومة الوفد فى نهاية الحرب العالمية الثـانية وبعـد أن تأكـد زوال الخطر الألمـانى وانحـسار المد النازى، وخـروج قوات المـحـور من إفريـقيـا. ونصح البـعض سـعد توفـيق بالانضمام إلى الحزب السعدى أو الحزب الدستورى حيث إن الحكومة القادمة ستكون حكومة تحالف من الحزبين.

ولكن سعد اختار أن يكون مستقـلا وخاض المعركة الانتخابية على هذا الأساس.

ومن أجل الفوز فى المعركة الانتخـابية طبع سعد توفيق عدة ألوف من الصور من مـختلف الأحجام. واسـتعان بصـورته التى ظهرت فى إعلان الدواء الذى يقضى على الصلع.

وغطى حوائط الجيزة بصورته وهو فى كل الأوضاع، مرة وهو واقف على قدميه، ومرة وهو جالس خلف المكتب، ومرة وهو يسند رأسه على قبضة يده وكأنه فى حالة تفكير. واكتفى بكتابة عبارة مختصرة تحت الصورة «انتخبوا ابن الدايرة». لم يوفق سعد توفيق فى انتخابات مجلس النواب، وجاء ترتيبه الأخير بين المرشحين، ولم يسترد تأمينه الذى دفعه قبل خوض المعركة. كانت الصور التى طبعها سعد توفيق أكثر مما يجب، وعندما استفسر منه وكيله الانتخابى عن مصير هذه الصور طلب منه تخزينها لحين الحاجة إليها. وكانت الصور من الكثرة لدرجة أنه أفرد لها حجرة خاصة فى مكتبه لحفظها، وأصابت الدهشة الكثيرين من معارفه بسبب تخزينه للصور، ولكن الدهشة سرعان مازالت عندما أصدر سعد أوامره بإعادة تعليق الصور فى كل أنحاء الجيزة لأنه قرر ترشيح نفسه فى انتخابات الغرفة التجارية. ولكن نتيجة الانخابات لم تختلف كثيرا عن نتيجة الانتخابات السابقة، فشل سعد بجدارة وكان ترتيبه قبل الأخير بواحد. واستبدت الدهشة بوكيله عندما كان أول قرار أصدره بعد أن عرف نتيجة انتخابات الغرفة التجارية، بطبع عدة آلاف من الصور وتخزينها فى غرفة المكتب، صاح الوكيل مستنكرا:

– وهانعمل بيهم إيه؟ هنخللهم. ثم إن أقرب انتخابات فاضل عليها سنتين.

رمقه سعد بنظرة قاسية وقال له :

– مش بقولك أنت بتاع انتخابات وبس، مفيش عندك أى ذرة فهم للاقتصاد.

– ودى مالها ومال الاقتصاد بقى.

– إذا كانت الانتخابات بعد سنتين، يبقى لو طبعتهم الآن هنوفر الشىء الفلانى. ثم أنا لما أقولك حاجة تنفذها.

– حاضر يا فندم.

وصار من عادة أطفال الجيزة إذا علموا بأن هناك انتخابات على الأبواب أن يهرعوا إلى مكتب سعد توفيق ليحصلوا على صورة ثم يقوموا بالطواف فى أنحاء المدينة مرددين الهتاف الذى اعتادوا عليه: انتخبوا ابن الدايرة.. يا توفيق بالتوفيق.. وكان وكيل سعد يتولى توزيع قطع الشكولاتة على الأطفال، وأحيانا كان يوزع عليهم كراريس رسم وأقلام ألوان.

كانت آخر انتخابات خاضها سعد توفيق هى الانتخابات التى أسفرت عن فوز حزب الوفد وفاز فيها بأغلبية ساحقة، لذلك لم يكن هناك من هو أكثر سعادة من سعد توفيق عندما احترقت القاهرة وتمت الإطاحة بحكومة النحاس باشا وحل مجلس النواب. وشمر سعد عن سواعده فهو بالتأكيد سيكون له شأن في الانتخابات القادمة. وراح يستعد لهذا اليوم الموعود، غير أن آماله تحطمت كلها عندما أذاع الجيش بيانه الأول من إذاعة القاهرة.

●●●

يا لضيعة أحلامك يا سعد توفيق.. طول عمرك تكره الضبط والربط والأوامر والتعليمات، وها هى الدنيا ضاقت بك وضاقت عليك. وهذه السلطة الجديدة لا تحب الانتخابات ولا تشجعها، وليس من طبيعتها أن تمارس سلطتها على برلمان ونواب، ولكنها تكتفى بإصدار الأوامر وتطلب من الآخرين تنفيذ الأمر. عندما شعر سعد بالإحباط لجأ مرة أخرى إلى قهوة كتكوت، وحرص فى هذه المرة على أن يبتعد قليلا عن قعدة الأدباء، فمثل هذه القعدة لم تكن مضمونة العواقب، خصوصا وهؤلاء الأدباء يجيدون الثرثرة، وهو الأمر الذى يجب تجنبه فى مثل هذه الظروف، ولكن.. وبالرغم من حرصه الشديد والتزامه الحذر فقد جاءه الولد ريعو جرسون القهوة بخبر جعل النوم يفر من عينيه، أبلغه ريعو أن سيارة عسكرية توقفت إلى جوار رصيف القهوة ونزل منها ضابط له مهابة، وسأل عن الأستاذ سعد توفيق، ولما لم يجده أبلغ

ريعو بأنه سيعود مرة أخرى بعد أيام. وعبثا حاول سعد توفيق معرفة أى شىء عن حقـيقة هذا الضابط أو اسـمه أو مهمـته أو وظيفتـه. ماذا تخبىء لك الأيام يا سعد يا توفيق؟؟

لقد حرص طوال العمر على أن يبقى محايدا، لكن المشاكل لا تعرف الفرق، ولأن المصـائب مصابة بالعمى فقد تصطدم بالأبرياء وتتفادى الذين يستـحقون الموت. بعد عـدة أيام كان سعد يجلس داخـل القهوة بعيدا عن جلسة الأدباء عندما جاءه الـولد ريعو يحجل كالغراب، ثم قال له فى لهفة :

– الظابط جه.. الظابط جه.

نهض سعـد من مكانه متلهـفا لرؤية الضـابط إيه، وهـو شديد القلق شديد الخوف، وإن تعمـد إخفاء خوفه بابتسامة مصطنـعة رسمها على شفـتيه، يا الله.. عندمـا وقع بصر سعـد على الضـابط اشتـعلت ذاكرته الخامدة وعادت إلى الحـياة.. يا الله.. سهـيل.. هكذا صاح سـعد باسم الضابط وهو غير مصدق ما تراه عيناه.

– فين أراضيك؟

رد الضابط فى هدوء :

– مسير الحى يتلاقى.

– مفيش كلام.

سحب سـعد صديقه الضـابط إلى حيث كان يجلس داخل القـهوة.. لكن الضابط توقف فجأة وقال لسعد :

– ما تيجى نقعد بره نشم هوا

ولكن سعدا أقنعه بالجلوس فى الداخل، فلما سأله الضابط عن السر وراء ذلك قال له :

– أنا بينى وبينك مش عاوز أورط نفسى فى أى حاجة غلط.

وسأله الضابط فى اهتمام :

– فيه حاجات غلط بتحصل هنا ؟

ورد سعد بصوت خفيض :

– لا ما حصلش لحد دلوقت، لكن أنا حريص أكون بعيد.

قال الضابط كأنه يصدر أمرا :

– على كل حال الاحتياط أحسن اليومين دول.

انهمك الرجلان في حديث عن أيام زمان، أيام المدرسة الثانوية، وضحكا في وقت واحد عندما تذكرا صادق أفندي مدرس الكيمياء، ولم يفترق الرجلان في أيام الصبا إلا عندما التحق الضابط بالكلية الحربية، بينما ذهب سعد والتحق بالجامعة.

– ولكن أين أنت الآن من هذا كله ؟

هكذا سأل سعد توفيق صديقه الضابط.

– أنا كما تعلم كنت في سلاح المدرعات، وأنا الآن في القيادة العامة. وقد جئت لك في خدمة وأرجو التوفيق.

رد سعد في ثقة :

– أنا حاضر وتحت أمرك، وأي خدمة استطيع أن أؤديها لك سافعل بكل سرور.

شكره الضابط وأثنى عليه، ثم قال له :

– نصيحتي الوحيدة لك أن تأخذ حذرك دائما، فالأيام القادمة ستحمل معها الكثير، وأعداء الثورة على قفا من يشيل فلا تتورط في شيء.

وحكى له سعد كيف قاطع قعدة الأدباء حتى لا يتورط في أي شيء. وكانت دهشة سعد كبيرة عندما نصحه الضابط بأن ينفتح على الناس، وأن يجلس مع الادباء وغيرهم دون أن يورط نفسه في شيء.. وقال له :

– إحنا مش عبط ولا بريالة.. المهم إنك تتحفظ في كلامك وفي سلوكك وبس.. وكل واحد متعلق من عرقوبه.. وبعدين أنا عاوز أقولك حاجة.

أصغى سعد بكل جوارحه وقال :

- اتفضل.

همس الضابط قائلا :

- إحنا محتاجين مدنيين معانا، مش معقول العسكر بس همه اللى هيحكموا البلد. ولذلك أنا فكرت فيك وجيتك.

التقط سعد العبارة الأخيرة وتساءل في ريبة :

- محتاجينهم في إيه ؟

- في حاجات كتيرة المهم إحنا عاوزين معانا ناس نضاف وسمعتهم كويسة، وبعدين المستقبل دا بإذن الله. والجماعة اللى هيكونوا معانا بإذن الله، ممكن يبقوا مستشارين للحكومة، وممكن يبقوا وزرا.

وزرا.. هكذا هتف سعد بينه وبين نفسه.. آه لو صحت الأحلام يا سعد.. وزير وحاشية وحراس وكشك أمام البيت.. ووفود لا تنقطع واجتماعات وتصريحات .

وتوقف سعد عن التحليق بأحلامه فجأة، وارتسمت على ملامحه أطياف حزن مفاجيء. ياقوة الله.. هل تتحول هذه الحركة إلى عقبة في طريق مستقبله، هل سيعثرون عليها عندما ينقلون في تاريخه وماضيه، صورته على الجدران في أنحاء المدينة، مرة وهو أصلع ومرة وهو بشعره الناعم الغزير؟ ولكنها كانت أيام الشباب وفي الشباب ياما نزوات وتجاوزات.

وعلى العموم.. ربنا يستر!

١١ نرجس ومندوب القيـــادة!

عاش المحاسب توفيق يحلم أحلاما سعيدة بعد لقائه بصديقه الضابط على قهوة كتكوت. من كان يتصور أن حلم توفيق سوف يتحقق على يد صديق الصبا والشباب؟ الأمر الذى حير توفيق هو أن صديقه الضابط لم يكن يبدى اهتماما من أى نوع للأحداث السياسية، كان بطلا رياضيا مارس الملاكمة ،حمل الأثقال ثم انحصر اهتمامه بعد ذلك فى كرة السلة، ولكنه لم يحقق فيها نجاحا كبيرا، واستمر يلعب فى فريق المدرسة ولكنه لم يتمكن من الالتحاق بأية فرقة من فرق النوادى الكبيرة. والسبب فى ذلك أنه كان شديد الشغف بعقد صلات متعددة مع عدد كبير من البنات. وبسبب هذه الهواية تراجع دوره كثيرا حتى فى فريق المدرسة، فأصبح خارج التشكيل الأساسى وضمن الاحتياطى فترة طويلة من الوقت، قبل أن يعلن احتجاجه وينسحب بإرادته من الفريق، ولكنه سحر الحياة وسرها أن المقدمات لا تدل بالضرورة على النتائج. وها هى السياسة تسعى لصديقه بعد الثورة فيجد نفسه رغم أنفه فى قلب العواصف السياسية. ولكن لأنه ابن ناس وحريص على العيش والملح، فقد سعى إلى صديقه القديم ليقاسمه المسئولية ويشركه معه فى حكم البلاد.

وحلق توفيق بخياله بعيدا. هل يحالفه التوفيق فيصبح واحدا من الحكام؟ وما المانع أن يصير توفيق بين الحكام؟ وكما صار شولح بين

الأنبياء. وجلالة الملك فؤاد نفسه كان من «الصياع»، ولكن الظروف أجبرت السلطة البريطانية على الاتصال به وساومته على حكم مصر ومنحته لقب السلطان. وتوفيق لا يطمع فى أن يكون سلطانا، يكفيه أن يكون محافظا أو وزيرا، وهو وضع أكثر أبهة بالتأكيد من عضو مجلس النواب! مرت أيام كثيرة قبل أن يظهر الضابط مرة أخرى فى قهوة كتكوت. وكان قد حدث تطور خطير فى سلوك المحاسب توفيق كان قد عاد مرة أخرى إلى توثيق علاقته بشلة الأدباء نزولا على نصيحة صديقه الضابط. وعندما جاء الضابط وجد توفيق مشتبكا فى مناقشة حامية مع أحد الأدباء عن ضرورة تطبيق الديمقراطية قبل الدخول فى صراع مع الانجليز لإنهاء الاحتلال الانجليزى، وكان هذا هو رأى الأديب، بينما كان من رأى توفيق أن الجلاء أولا لابد أن يكون هدف أية حكومة. ألقى الضابط السلام على الجميع وكأى صديق قديم سحب الضابط أحد الكراسى وجلس، والتقط الخيط وواصل الحديث الذى كان يجرى قبل حضوره. ولكنه اضطر إلى التوقف عندما نهض الناقد عبدالستار ورفع يده مودعا دون سابق إنذار. وقال الضابط معلقا :

– إيه الحكاية؟ إذا جاءت الشياطين ذهبت الملائكة ؟

ورد الأستاذ الناقد بنبرة حاول أن تكون ودية :

– بالعكس، دانا كنت نفسى أقعد معاك، بس الحقيقة أنا كان ورايا مشوار مهم جدا وكنت ناسيه.

والحق أن الأستاذ الناقد كان لا يخفى عداءه للثورة وكان يطلق عليها من باب السخرية «الحركة المباركة» ومنذ إعلان بيانها الأول كف عن الكتابة تماما، وربما كان يمارس الكتابة ولكنه كان يرفض نشر ما يكتبه. وكتب ونشر مرات قليلة ولكن فى مجلات أدبية تصدر فى بيروت. وحاول بعض محررى الصحف أن ينتزعوا منه ولو عدة كلمات عن تأييده للثورة ولكنه كان يرفض بإصرار، متعللا بأنه أديب وليست له علاقة بالسياسة!

وتركت هذه الحركة من جانب الناقد أثرا في نفس الضابط، ودفعه هذا الشعور إلى مصارحة الجالسين بأنه تطفل عليهم ويخشى أن يكون تسبب في مضايقتهم، وأكد لهم أنه لن يتطفل على مجلسهم مرة أخرى، ولكن الأستاذ عشماوى نهض من مجلسه واقترب من مجلس الضابط وقال له في لهجة ودودة :

– يا خبر أبيض، دا احنا كنا فاهمين إن الحساسية المفرطة هي من متعلقات الأدباء فقط، لكن إنت النهاردة أضفت إلى علمنا معلومة جديدة، وهي أن الضباط أكثر حساسية من الأدباء!

ثم راح يشرح للضابط كيف أن الأمور بين شلة الأدباء تمضي بدون حساسيات. وأكد له أن أحدهم قد ينصرف فجأة أثناء مناقشة حامية هو نفسه الذي فجرها.

ووجدها الأستاذ عشماوى فرصة فراح يشيد بدور الجيش في تحرير مصر من الفساد السياسي والمالي، ولكنه شديد الدهشة لأن الثورة لم تهتم بالاتصال بالمثقفين لمعرفة رأيهم في حاضر البلاد ومستقبلها، ثم نظر إلى الضابط نظرة ذات مغزى وقال له :

– حضورك النهاردة وقعدتك معانا، أنا شخصيا باعتبر ذلك أول لقاء حقيقي تقوم به الثورة بالمثقفين.

سر الضابط سرورا عظيما بحديث الأستاذ الأديب، ولذلك كان حريصا على أن يعرف كل شيء عنه بعد أن نهض الأدباء وانصرفوا من القهوة. سأل الضابط صاحبه المحاسب عن شخصية الأديب صاحب الحديث الممتع.

وسر أكثر عندما علم أنه موظف حكومة في الصباح ومحرر ليلا في إحدى الجرائد الصباحية الكبرى، كما أنه عالم كبير في الفنون الشعبية، وله برامج ناجحة جدا في الإذاعة والتليفزيون. عندئذ قال الضابط لصديقه المحاسب بطريقة تشبه الأمر :

– فليكن هذا الأستاذ هو أول العشرة الذين سيقع اختيارك عليهم.

وظهر على ملامح المحاسب أنه لم يفهم شيئا، فقال الضابط :

- نسيت أن أقول لك أن مهمتك الآن ستبدأ باختيار عشرة أفراد مدنيين من أصحاب السمعة الطيبة والنشاط الجماهيرى لحشدهم خلف الثورة من أجل خدمة الشعب وتنفيذ برامج الثورة.

وتساءل المحاسب الذى كان قليل الخبرة بالعمل السياسى :

- وهل يكفى هؤلاء العشرة للقيام بهذه المهمة الجليلة ؟

وقال الضابط موضحا :

- نسيت أن أخبرك أيضا بأن لدينا الآن ألف مواطن مثلك، ومطلوب من كل واحد منهم تشكيل خلية من عشرة.

وبعد فترة صمت قال المحاسب :

- وهل هؤلاء العشرة آلاف مواطن فيهم الكفاية ؟

وابتسم الضابط ابتسامة عريضة وقال :

- أنا فى الحقيقة غير مأذون بأن اكشف لك السر كله. ولكن سأكشفه لك وكلى ثقة أن ما أقوله لك الآن سيظل سرا بيننا.

وهز المحاسب رأسه عدة هزات سريعة وقال للضابط :

- سرك فى بير.. اطمئن.

قال الضابط وهو يهمس فى اذن المحاسب :

- هؤلاء العشرة أعضاء الخلية، سيكون على كل واحد منهم تجنيد عشرة، وسيقوم كل عشرة بتجنيد عشرة لكل واحد، وهكذا لو نجحت الخطة سيضم التنظيم عدة ملايين فى فترة وجيزة.

ياقوة الله، فكرة بسيطة ولكنها جهنمية. كيف غابت هذه الفكرة عن حزب الوفد وبقية الاحزاب الاخرى. عشرة فى عشرة فى عشرة يتكون منهم تنظيم أقوى ألف مرة من كل الاحزاب التى عرفها البشر.. وسيكون طبعا لمن جند العشرة الأوائل شرف التواجد فى الصدارة وعليه واجب القيادة لتحقيق النجاح لبرامج الثورة!

أصبح من عادة الضابط أن يحضر إلى قهوة كتكوت بين الحين

والآخر. وكان الحاضرون من الأدباء يفسحون له مكانا بينهم، كما كان المعلم كتكوت حريصا على تقديم المشروبات بنفسه للضابط، الذى اشتهر بين رواد القهوة بأنه مندوب القيادة.

وتأكدت هذه الإشاعة عندما حقق رجاء المعلم كتكوت بتوظيف أحد أبنائه فى شركة الدخان التى تقع فى دائرة مدينة الجيزة. وقد تم تعيينه بسرعة وبوظيفة ملاحظ وبراتب قدره عشرة جنيهات شهريا، وهو مبلغ يقترب كثيرا من مرتب خريج جامعة، ولم يكن ابن المعلم كتكوت يجيد القراءة والكتابة.

عندما فاتح المحاسب توفيق أستاذ الفن الشعبى فى موضوع تجنيده فى الخلية، أبدى ترحيبا شديدا بالفكرة وحماسا أشد فى الانضمام إليها. وأكد للمحاسب أنها فكرة وجيهة لو تم تنفيذها على الوجه الأكمل فستكون قاعدة صلبة لحكومة الثورة تستطيع من خلالها الانطلاق لتحقيق حلم الجماهير. وأبدى أسفه لأن وقته ضيق لسعيه المتواصل من أجل لقمة العيش، ولكنه وعد بتنظيم وقته لكى يتسنى له أن يلقى بنفسه فى بحر الثورة كلما وجد الفرصة لذلك. ووصلت الرسالة إلى المحاسب توفيق الذى فاتح صديقه الضابط بأن الاستاذ سيكون أكثر فائدة لو رتبنا له وظيفة واحدة تؤمن له دخلا يكفيه، وقد رد الضابط باختصار :

- سأحاول وسأقوم بإبلاغك عما قريب.

انشغل المحاسب توفيق بتجنيد بقية العشرة ولم يتمكن من تجنيد أحد من شلة الأدباء إلا أستاذ الفن الشعبى وأديب آخر كان يعمل موظفا بالحكومة ويكتب بعض القصص أحيانا ينشرها فى مجلة أدبية محدودة التوزيع. أما الأدباء الآخرون فقد ترددوا فى الانضمام وبعضهم رفض الفكرة تماما وانقطع عن الحضور إلى القهوة كما أن الأستاذ الناقد الذى غادر القهوة لحظة حضور الضابط وانضمامه إلى الجلسة أول مرة، لم يظهر مرة أخرى فى القهوة واختفى تماما فلم يره

أحد بعد ذلك!

ومرت عدة أسابيع سأل المحاسب صديقه الضابط عما إذا كان قد وجد حلا لمشكلة أستاذ الفن الشعبي وجاءه الجواب :

– اتركه الآن كما هو، وعندما يأتي الوقت المناسب سيكون الحل جاهزا .

وعندما سأله المحاسب :

– ومتى يكون الوقت المناسب ؟

قال الضابط بحسم :

– لا أعلم، ولكني أريدك أن تعلم أنني لا أحكم ولكنني أنفذ أوامر!

أقلقت هذه الكلمات المحاسب توفيق، ما معنى أنه لا يحكم ولكنه ينفذ أوامر ؟ وبالرغم من القلق الذى استبد به إلا أنه راح يواصل جهوده لتجنيد العشرة المكلف بتجنيدهم.

ومع ذلك لم يستطع تجنيد أكثر من خمسة أفراد. اثنان من الأدباء، واثنان من زملائه المحاسبين وفراش مكتبه الذى لم يفهم شيئا، ولكنه أبدى ارتياحا لأنه سيكون «مع الأستاذ» فى المكان الذى يتواجد فيه!

ثار صديقه الضابط عندما علم أنه فشل فى تجنيد العشرة، وقال فى غضب :

– كنت شديد الثقة فى مقدرتك على سرعة إنجاز هذه المهمة، ولكنك للأسف الشديد تعثرت لسبب غير مفهوم.

ورد المحاسب سعد توفيق :

– فى الحقيقة الناس تخشى الارتباط بالثورة لأنهم لا يضمنون استمرارها.

وقاطعه الضابط قائلا :

– وهل هذا هو شعورك أنت الأخر ؟

ورد توفيق وقد استبد به الخوف :

– أنا لا أعتقد إن فيه حد بيحب الثورة قدى.

– لو كان دا حقيقى يا توفيق كان الناس لبوا دعوتك.
– إذا كنت مش مصدقنى يبقى بلاش أتعب نفسى واشتغل معاكو.
ابتسم الضابط وقال لصديقه المحاسب :
– إيه الحكاية، انت النهاردة مش زى عوايدك.
– تمتم المحاسب بكلام غير مفهوم فى البداية ثم قال بصوت مسموع :
– إذا كنت بتشكك فى ولائى للثورة يبقى الواحد يقعد فى البيت أفضل.

حاول الضابط تهدئته بكلام معسول ولكن المحاسب أبدى رغبته فى العودة إلى منزله لشعوره بالارهاق، وعندما وقف الضابط للانصراف، وضع كفه على جبهة صديقه، وقال له فى ود :
– دول شوية برد روح نام واشرب لمون وهتروق.
ثم قال له وهو يبتعد :
– ها اتصل بيك بالتليفون عشان اطمئن عليك.

عاد توفيق إلى المنزل بالفعل وفى نيته أن يدخل سريره وينام، ولكنه وجد أمه فى انتظاره ومعها خطاب. وقبل أن يفض غلافه سألها:
– منين ؟
– ما عرفش يا بنى ـ البواب جابه وقال من واحدة ست.

ست!! منذ أيام الدراسة فى الجامعة لم يكن له علاقة بأى ست.

أسرع بفض الغلاف وألقى نظرة على الخطاب نفسه، فاكتشف أن الورق بلون البنفسج. ولم يكن بالخطاب إلا عدة كلمات قليلة «عاوزة أشوفك ضرورى لأمر هام إذا كنت لسه فاكرنى» يا للمفاجأة.. التوقيع: نرجس.

يا سبحان الله، نرجس مرة أخرى. ترى كيف يكون حالها الآن؟

لابد أنها تزوجت وأنجبت أطفالا كثيرين. لقد كانت هى الأنثى الوحيدة التى كان لا يشعر معها بخجل. وكان يجالسها ويحدثها، وفى

مرات كثيرة تجرا ووضع يده على كتفها، ومسح براحة يده على شعرها. ولكن لماذا تذكرته بعد كل هذه السنوات؟ وما هى الخدمة التى تريدها؟ من حسن الحظ أنها سجلت رقم تليفونها على الخطاب. أدار القرص وطلبها. وجاءه صوت عذب كما عرفه من قبل، صوت أنثى عاشت طفولة ناعمة وشبابا مرفها، أبدت رغبتها فى أن تراه، فسألها أن تحضر إلى منزله :

– أنا معايا والدتى فى البيت ومافيش حد تانى. اتفقا على الموعد.. الخامسة بعد الظهر. ألقى توفيق نظرة على نفسه فى المرآة، واضطرب عندما اكتشف أن ذقنه طويلة وشعر رأسه لم يعرف طريقه إلى الحلاق منذ فترة. وألقى نظرة على الساعة، كانت تشير إلى الثالثة بعد الظهر. طلب من والدته أن توقظه من النوم فى الرابعة تماما، ودخل سريره وحاول النوم ولكنه لم يفلح. وظل يستدعى النوم دون جدوى ولم توقظه أمه فى الرابعة لأنه غادر سريره وحاول النوم ولكنه لم يفلح. وظل يستدعى النوم دون جدوى ولم توقظه أمه فى الرابعة لأنه غادر سريره فى الثالثة والنصف. ودخل إلى الحمام فاغتسل وحلق ذقنه، ثم ارتدى بدلة أنيقة كان من عادته أن يرتديها فى المناسبات السعيدة. وطلب فنجان قهوة وجلس يتصفح مجلة أسبوعية ويعد الدقائق والثوانى فى انتظار نرجس. العجيب أنها كانت دائما تنقذه من مواقف محرجة. ولولا موعدها لكان الآن غارقا فى بحار من القلق بسبب ما جرى بينه وبين صديقه الضابط.

وبسبب فشله فى تجنيد عشرة أشخاص يتحمسون له وللثورة.

إنها مشكلة حقيقية لأنه فى الواقع لا يعرف أشخاصا كثيرين وهو شخصيا يتحرك فى دائرة ضيقة بالرغم من أنه يرشح نفسه فى كل الانتخابات، وأخرجه من تأملاته وصول نرجس، سمع رنين الجرس وشاهد خيالها من خلف زجاج النافذة. وعندما فتح لها الباب ووقع نظره عليها كأنه رأى شبابه يعود إليه، نرجس كما كان يعرفها أيام

الجامعة. هي هي لم تتغير، صحيح أن الزمن ترك بصمة هنا وبصمة هناك، ولكنها لا تزال تحتفظ بحسنها ودلالها. سألها عن أحوال أسرتها الصغيرة.. أولادها وزوجها. واكتشف أنها مثله لم تتزوج وليس لها ولد.

واكتشف أيضا أن والدها توفي وشقيقها الوحيد تزوج، وتعيش مثله مع والدتها المريضة. وتعمل في الجهاز المركزي للمحاسبات. ولكنها مظلومة وتعاني من الاضطهاد، فالذين تخرجوا بعدها يتولون مناصب مهمة وحساسة في الجهاز الذي تعمل فيه. والسبب أنها بلا ظهر يحميها. وقد فكرت في أن تلجأ إليه لعله يستطيع أن يتدخل من أجلها لكي تحصل على حقوقها المشروعة.

وأصابته دهشة شديدة لاعتقادها أنه يستطيع خدمتها، وقال لها وهو يدقق النظر في ملامحها :

- ليس أسعد مني لو استطعت تقديم خدمة لك.. ولكن كيف ؟ أنت ربما لا تعلمين أنني أدير مكتب محاسبة ولا أشغل مركزا حكوميا. وليس لي علاقة بأحد في الجهاز المركزي للمحاسبات.

نظرت نرجس نظرة ذات معنى لتوفيق وقالت في أسف :

- ياه.. دانت ماتغيرتش.. ولا عمرك هاتتغير.

نظر إليها توفيق ببلاهة وقال :

- قصدك إيه مش فاهم.

- قصدي إنك طول عمرك أناني.

صاح توفيق مستنكرا :

- أنا أناني يا نرجس ؟!

نهضت نرجس من مكانها وقالت بغيظ :

- أنا فعلا كنت غلطانة لما فكرت أجيلك في تلك اللحظة كانت الأم قد دخلت بصينية القهوة، فنظرت إليهما وقالت :

- إيه يا توفيق.. إزاي تزعل ضيفتك ؟

وقال توفيق :

– أنا يا ماما!! والله مازعلتها.

وقالت نرجس وهى تحاول الإنصراف .

– طيب يا جماعة، استأذن أنا بقى.

وقالت الأم منزعجة :

– ياخبر.. وماتشربيش القهوة بتاعتى يا بنتى!

مد توفيق يده فأمسك بذراع نرجس وقال لها :

– طيب أقعدى بس فهمينى.. انت زعلت ليه ؟

– ما تعـرفش ليه ؟ مانا بقـولك أنا جيالـك فى طولك وفى عرضك، تقوم تقوللى أنا مـا عرفش حد فى ديوان المحاسبـة. يا سلام.. ما انت تعرف الناس اللى يقدروا يجروا الهرم الأكبر من مكانه.

صاح توفيق مندهشا.

– أنا !!

– أيوه أنت.

ضحك توفيق ضحكة هستيرية وقال :

– طيب قوليلى همه فين ؟

– يا سلام.. مندوب القيادة.

سرح توفيق بعيدا ثم عاد إلى نفسه وقال :

– قصدك..

قاطعته نرجس قائلة :

– أيوه قصدى.

نهض توفيق على قدميه وعض أصبـعه الكبير عضـة تركت أثرا على الجلد وتنهد تنهيدة حارة وقال كأنه يتحدث لنفسه :

– أما شىء غريب خالص.

١٢ على سكة عرابى!

غرق المحاسب توفيق فى أفكار شتى، لدرجة أنه لم يشعر بنرجس وهى تغادر المنزل، هل علاقته بصديقه الضابط أصبحت معروفة للجميع؟

وهل صديقه يحتل موقعا فى قمة المسئولية يسمح له بفعل ما يشاء؟

لقد تصور المحاسب توفيق أنه مجرد ضابط صغير، وقد يكون له موقع فى جهاز حساس، ولكن نفوذه لا يتعدى أبعد من مرمى حجر. ومع ذلك كان توفيق سعيدا بصداقته فى حدود وضعه كما تصوره.

ولكن لو كان صديقه له كل هذا النفوذ، فتوفيق يجب أن يقطع علاقته به على الفور. فالمحاسب توفيق حرص طوال العمر على المشى جوار «الحيط»، وصداقته بمسئول صغير عواقبها بسيطة، ولكن عواقب مصادقة الكبار مدمرة. والناس قد تغفر للكبير ولكنها لا تغفر لبطانته. والفكرة عنهم دائما أنهم إما متربحين وإما منافقين. والمحاسب توفيق لا يسمح لنفسه أن يكون فى هذا الوضع. ما العمل الآن؟ وهل يمكنه الانسحاب فى هذا الوقت؟ وما هو السبيل إلى تحقيق هذا الانسحاب دون إثارة غضب صديقه الضابط؟ لأن عواقب مثل هذا الانسحاب ستكون رهيبة، خصوصا إذا صحت مزاعم هذه السيدة التى ظهرت فجأة فى حياته وكأنها شبح من أشباح الماضى.

وعلى مدى أسبوع كامل لم يهنأ توفيق بفترة نوم هادئة، ونسب هذه الحالة لانتفاخ في المصران الغليظ، ولكن الطبيب الذى عرض نفسه عليه أكد له أن حالته العصبية المتوترة هي السبب فى انتفاخ المصران الغليظ. ولما عرف المعلم كتكوت بمرض توفيق بيه المحاسب أمر الولد ريعو بعدم تقديم أى مشروبات للبيه ما عدا الينسون والنعناع. وعندما حضر المحاسب توفيق إلى القهوة مساء تلقاه المعلم كتكوت بالأحضان ناصحا إياه بشرب الينسون والنعناع مضيفا :

– عشان نشوفك زى الوردة «المفتحة» وترجع لقعدتك اللى حرمتنا منها، وكمان عشان تفوق للراجل الطيب صاحبك اللى كان عامل زى اليتيم وانت عيان ونايم فى البيت.

تساءل المحاسب توفيق عن هذا الصديق الذى كان أشبه باليتيم أثناء مرضه، وأجاب المعلم كتكوت:!

– الراجل صاحبك الضابط، دا راجل أمير قوى وابن ناس وينحط ع الجرح يبرد!

واستبدت الدهشة بالمحاسب توفيق وسأل المعلم كتكوت :

– انت كنت تعرف الضابط قبل كده؟

وأجاب المعلم كتكوت على الفور :

– وهاعرفه فين ؟ دنا عمرى ما شفته غير هنا، لكن الكتاب بيان من عنوانه، وهو راجل سمح وباين على وشه إنه ابن ناس طيبين.

وسكت المعلم كتكوت قبل أن يعاود الحديث قائلا :

– دا غير بقى إنه راجل مسنود وإيده طايلة.

وحدق المحاسب توفيق فى عينى المعلم كتكوت وسأله :

– وانت عرفت إزاى إنه مسنود وإيده طايلة ؟

مال المعلم كتكوت على أذن المحاسب توفيق وهمس له المخبر عبد ربه قاللي

ورد المحاسب توفيق ساخرا :

- هوه عبد ربه بقى مدير المباحث ؟

- يا أستاذ ـ يحط سره فى أضعف خلقه. ثم هوه عرف من الخدمة اللى متعينه له.

- خدمة إيه؟

- حراسة، حراسة فى البيت وحراسة فى الشغل وحراسة شخصية، يعنى هوه محروس الـ ٢٤ ساعة. ودا معناه إنه راجل تمام ويفوت فى الحديد.

يفوت فى الحديد ـ يا دى الكارثة اللى حطت على راسك يا توفيق يثاب الرجل رغم أنفه، ويذهب إلى اللومان رغم أنفه أيضا. إذن الحكاية صحيحة وما ذكرته نرجس هو الحقيقة. وكل الناس تعرفها حتى المعلم كتكوت، بينما توفيق وحده هوه اللى نايم على ودانه. وكأنه أطرش فى زفة! ولكن توفيق لا يمكن محاصرته ولا يمكن فرض وضع معين عليه.. خصوصا إذا كان توفيق يرفضه. وسيجرب توفيق ألف وصفة وسيسلك ألف طريق لينطلق من القفص الذى يوشك على دخوله بقدميه وفرح المحاسب توفيق عندما أقبل فى اليوم التالى على مجلسه فى القهوة فوجد الأستاذ عشماوى يجلس وحده على غير عادته. واعتبر توفيق وجود الأستاذ وحده فرصة هيأتها له السماء ليستطلع رأيه فى هذه المشكلة التى تنغص عليه حياته. وبعد أن شرب القهوة مال على اذن الاستاذ وهمس له بما يقلقه، ولزم الأستاذ الصمت فترة من الوقت راح أثناءها يعض على شفتيه العليا ويرعش حاجبيه ويشفط أنفاسا عميقة متلاحقة من السيجارة. ثم قال :

- وانت خايف من إيه يا أستاذ توفيق؟

ورد توفيق على سؤال الأستاذ عشماوى :

- أنا مش خايف، بس أنا راجل محاسب وأحب أعمل حساباتى قبل اى خطوة أقدم عليها يا أستاذ.

وقال الأستاذ وهو يضغط على الكلمات :

- شيء جميل، بس حسابات الحياة تختلف كثيرا عن حسابات البنوك والشركات. وبعدين شخصية عامة زيك ما يصحش تقدر البلا قبل وقوعه.

- يعني عاوزني استنا البلا لحد ما يقع.

وأرعش الأستاذ حاجبيه بعصبية شديدة وقال :

- ويقع ليه، مش ممكن يحصل العكس. والراجل صاحبك ده ربنا ينفخ في صورته هو والجماعة اللي معاه وينهضوا بالبلد الغلبانة دي، مش يمكن ربنا يجعل تحقيق الخير على ايديك يا أستاذ توفيق وبعدين لما يكون جنب الراجل المسئول شخص زيك انت، مش أحسن ما يلزق له حد من الصنف التاني اللي لا ذمة ولا ضمير.

ثم صمت لحظة قبل أن يقول :

- لكن أنت عرفت إزاي إن صاحبك دا مسئول كبير؟ منه هوه؟

هز توفيق رأسه بالنفي. فسأله الأستاذ :

- أنت متأكد ؟

هز توفيق رأسه بالإيجاب.

في تلك اللحظة كان حضرة الضابط قد غادر سيارته وأقبل عليهما، وعندما صافح توفيق وجده في حالة ليست على ما يرام، فسأله :

- انت مريض واللا إيه يا توفيق ؟

وأجاب الاستاذ عشماوي على سؤاله :

- دا شوية برد، بس توفيق محتاج يغير هوا.

- بسيطة، روح اقعدلك أسبوع في أسوان.

- وهاروح إزاي بس ؟

- يا سيدي حتدبر ـ ما تعتلش هم.

- أنا قصدي هاجيب وقت منين، دنا حتى أجازتي خلصت.

- ودي كمان مالكش دعوة بيها.

وتدخل الأستاذ في الحديث قائلا لتوفيق :

– يا أخي إنوى بقى، وإذا كـان لازمـك ونيس أنا مـسـتـعـد أروح معاك.. وبعدين أنا بقالي زمن طويل ماشفتش أسوان.

وقال الضابط على الفور :

– خلاص اتفقنا.. أنا حـادبر كل حاجة، واعملوا حسـابكو تسافروا بعد بكرة.

وحاول توفيق الكلام، ولكن الضابط أشار له بالصمت قائلا :

– مش عاوز كلام كتير، إحنا اتفقنا.

وأضاف الأستاذ عشماوى :

– أنا مع حضـرة الضابط.. انت مـحتاج للرحلة دى يا تـوفيق. على الأقل عشان تفكر بهدوء وفى جو هادئ.

ونظر توفـيق نحو الأسـتـاذ الأديب نظرة عاتـبة، فـقد تصـور أنه سيكشف ستره للضابط، ولكن الأستاذ واصل كلامه قائلا :

– أصل توفيق فى رأسه حاجات كتير حلوة وعاوزينه يطلعها.

وختم الضابط الحديث قائلا :

– أهو دا اللى احنا محتاجينه، ودا كمان اللى احنا عاوزينه.

●●●

فى القطار الذى أقلهمـا إلى أسوان وجد الاثنان فرصـة للحديث فى موضـوعـات شتى. كان توفيـق شديد القلق من مخاطر الرحلة المـقبلة، خصوصا والمـغامرة ليست من طبعه. وهو يفـضل الحياة فى الظل مع الأمان، على الوقـوف تحت الشمس مع احـتمال تعـرضه للأذى فى أى وقت. أدرك الأستاذ عـشماوى ما يعتمل فى نفس المحاسـب، فانبرى يهدئ من روعه قائلا :

– خوفك ده مالوش أى مبـرر، وراجل زيك أنت كان لازم يفرح لأن الأقـدار هيأت له هذه الفـرصـة التى قد لا تتكرر. والحـيـاة كمـا تعلم يا صديقى هى فرصـة واحدة إما أن تدركها وتتشبث بها وإما أن تمر بك وتمـر عليك! ثم أنـت خايـف من إيه؟ وهيـحـصل إيه؟ ما يخـدوك

السجن كام يوم أو كام أسبوع.. وفيها إيه؟ عرابى انسجن واتنفى وسعد زغلول حصل له نفس الشيء، وغاندى اللى خلق الهند الحديثة قتلوه. ومافيش حلاوة من غير نار يا أستاذ توفيق. ثم انت راجل فيك مواهب كثيرة وعندك استعداد حقيقى لخدمة الناس، والدليل على ذلك اشتراكك فى كل الانتخابات اللى جرت فى مصر يبقى موقفك الأخير دا مش منسجم مع حركتك السابقة، مش كده وللا إيه ؟

لزم توفيق الصمت وراح يفكر فى كلام الأستاذ عشماوى. هل يترك نفسه لاقتحام المجهول وليكن ما يكون؟ أم يستجيب لطبيعته فيعتذر لصديقه؟ وهل هو صحيح مهيأ لهذه المهمة كما قرر الأستاذ عشماوى؟ وإذا كان هو كما وصفه الأستاذ عشماوى، فلماذا لا يشعر هو نفسه بأنه هذا الشخص الذى يراه الأستاذ عشماوى وهو الأديب والمفكر الكبير؟ وهل يكذب الأستاذ عشماوى أم يقول الحقيقة؟ ثم.. لماذا يكذب الأستاذ عشماوى وهو فى غنى عن الكذب؟ إنه رجل يتمتع بشهرة عريضة ودخله لا بأس به وهو موضع تقدير واحترام الجميع مضى الأسبوع كلمح البصر لم يشعر المحاسب توفيق بانقضاء الزمن إلا وهو يعد حقائبه استعدادا للسفر. كان أسبوعا ممتعا لم يذق توفيق مثله من قبل، وكان للأستاذ عشماوى فضل فى مضاعفة المتعة بحديثه الشيق ورؤيته العميقة لأحوال الناس والحياة. واستطاع الأستاذ عشماوى أن يغير كثيرا من أفكار توفيق. فما الذى يمنعه بالفعل من خدمة الناس من خلال صديقه صاحب النفوذ؟ وما هو الضرر فى وجود رجال من ذوى النوايا الطيبة حول أصحاب المسئولية والقرار. فى القطار العائد إلى القاهرة لم يتبادل الصديقان الحوار إلا فى فترات متقطعة، كأنه لم يكن هناك داع للكلام بعد أسبوع حافل لم يتوقفا فيه عن الحديث وتبادل الآراء. إنهمك توفيق بعد الرحلة فى إجراء إصلاحات واسعة فى مكتبه الذى كان قد أهمله منذ افتتاحه قبل ذلك بعشر سنوات. وانفق عليه أموالا كثيرة ليليق بالدور الذى

سيقوم به في المستقبل القريب، وجهز مكتبا لصديقه العشماوى، وبدأ يتردد على المكتب بانتظام بينما صديقه الأستاذ عشماوى كان يأتى بين الحين والآخر. وذات مساء رن جرس الباب وكان الفراش قد غادر المكتب إلى بيته منذ دقائق وقام توفيق ليفتح الباب بنفسه على أمل أن يكون الأستاذ عشماوى هو الطارق. ولكن دهشته كانت كبيرة عندما وجد نرجس أمامه. نرجس مرة أخرى.. يا للهول على رأى يوسف بك وهبى. وتجولت نرجس ببصرها فى أرجاء المكتب وانبهرت بروعة الديكور وفخامة الأثاث، وقالت له وهى تغمز بعينها :

– انت نويت تفتح شركة وللا إيه؟

ورد عليها توفيق بلهجة عادية :

– لا.. أنا نويت أبقى محاسب؟

– الله.. أمال انت كنت إيه الأول؟

– أنا كنت محاسب على سبيل التذكار. ذهب توفيق إلى المطبخ وعاد ومعه زجاجة مياه غازية وجلسا على مقعدين متجاورين وقالت له وهى ترتشف بعض قطرات من الزجاجة.

– يعنى ما عملتليش حاجة يا توفيق؟

– أنا تحت أمرك قولى أعمل إيه؟

– يا رجل قلت لك توصى صاحبك يعملى الخدمة البسيطة دى ودى مش ح تكلفه حاجة غير تليفون، وإن كان على حق التليفون أنا مستعدة يا سيدى.

– انت يظهر عندك معلومات مش مضبوطة، إذا كان قصدك على صاحبى الراجل الضابط اللى كان زميلى فى ثانوى أحب أقولك إنه راجل غلبان زى حالتنا.. ويبقى كتر خير الدنيا لو عرف يخدم نفسه. ولزمت نرجس الصمت فترة.. ثم قالت وهى تحدق فى عينيه :

– عيبك إنك فاهم نفسك ناصح والناس كلها بلهاء، صاحبك الغلبان ده يا توفيق يقدر يعمل من الفسيخ شربات.

- ومعلوماتك دى منين ؟

لا.. ده سر حربى بقى ما أقدرش أقولهولك.

- لا أنا عاوز أعرف بصحيح.. وبعدين دى مسألة تهمنى جدا، لأن أنا سألته سؤال مباشر فانكر تماما أى حاجة زى كده.

لا.. إنت عارف زى مــا أنا عارفة بالضبط.. وأنا مش طالبة المستحيل.

- تعرفى يــا نرجس.. أنا من ساعة مــا قولتيلى الحكاية دى الدور اللى فات وأنا دماغى مقلوبة.. إذا كان كلامك صحيح طيب بينكر ليه؟

قالت بعد أن رسمت على شفتيها ابتسامة ذات معنى :

- هو ما أنكرش ولا حاجة إنت اللى بتتكر.

- تانى يا نرجس. بقولك صدقينى مرة فى حياتك.

- أنا عاوزاك انت اللى تقول الصدق مرة فى حياتك.

- يعنى أنا فى رأيك كذاب يا نرجس ؟

- لا ما انتش كذاب ولا حاجة.. انت بس عامل ناصح.

- طيب فهمينى إزاى!!

أشعلت نرجس سيجارة وشدت نفسا عميقا ثم قالت :

- انت مش كنت فى أسوان الشهر اللى فات.

بهت المحاسب توفيق.. كأنها ضبطته عاريا.. وقال بصوت خافت :

- آه صحيح.

- ومش كان معاك الاستاذ عشماوى صديقك ؟

- دى فيها إيه؟

- يعنى مافيش فايدة فيك.

وهمت بالوقوف استعدادا للانصراف ولكن توفيق جذبها بشدة وأعادها إلى مقعدها وقال لها بعصبية :

- شوفى بقى.. احنا مش بنعمل فوازير وأنا مش فاضى للألغاز دى قولى لى انت عرفتى ازاى إن احنا سافرنا أنا والأستاذ عشماوى؟

- أنا أصلى فاتحه فرع مع المخابرات الإنجليزية.

قالتها وضحكت ضحكة ممطوطة تحمل أكثر من معنى.. وانفعل توفيق بشدة وقال لها وقد بدا عليه الاضطراب :

- لا صحيح أنت عرفتى إزاى ؟

- يا سلام.. بسيطة.. ناس شافوكو هناك.

- طيب شافونى وعرفونى هناك لكن ايش عرفهم بالاستاذ عشماوى ؟

- إذا كنت عاوز الصراحة يا توفيق.. هما عرفوا الأستاذ عشماوى وبعدين عرفوا انك معاه الأستاذ عشماوى أديب ومعروف.. مش كده وللا إيه!

ونهضت نرجس واستأذنت فى الخروج وقبل أن يفتح المحاسب توفيق فمه بكلمة ألقت نظرة على ساعتها وصاحت ياه دا أنا اتأخرت قوى!

وحاول توفيق أن يبقيها بعض الوقت ولكنها تمسكت بالخروج وقالت فى لهجة ودية:

- حا أزورك مرة تانية.. بس بشرط.

- وإيه شرطك يا ستى؟

- يكون صاحبك خلص موضوعى.. وتأكد أنه مش ح يتكلف حاجة غير تليفون.

كان المحاسب توفيق ونرجس قد وصلا إلى الباب عندما دق جرس الباب فتحه وعندما فتحه وجد الأستاذ عشماوى حاملا فى يده لفافة، ووقف عشماوى ينظر بإعجاب إلى نرجس وهو يلعق لسانه ويرعش حاجبيه.

وقالت نرجس وهى تشير نحو العشماوى.

- الأستاذ العشماوى مش كده!

وأحنى العشماوى رأسه وقال :

– تمام يا افندم.

وأشار توفيق إلى نرجس وقال :

– الأستاذة نرجس.. محاسبة وزميلتي في الكلية.

وقال العشماوي وقد بدا الاستنكار على وجهه :

– يا توفيق حرام عليك، قول تلميذتك مش زميلتك.

وضحكت نرجس وقالت للعشماوي :

– أنا متشكرة على المجاملة اللطيفة دي.

وقال الأستاذ عشماوي :

– دي مش مجاملة يا افندم أنا باوصف اللي باشوفه.

– لا ده أنت لطيف قوي يا أستاذ عشماوي.. وعلى العموم أنا قرات لك كتير وما كنتش متصورة إنك لطيف للدرجة دي.

شعر توفيق بشيء من الغيرة فقال لها :

– ياله بقى علشان ما تتأخريش.

فمدت يدها وصافحت توفيق.. ثم صافحت الأستاذ عشماوي وغادرت المكتب وقال توفيق لعشماوي :

– إيه اللي معاك ده !

– ده فطير مشلتت يستاهل بقك.

حاول عشماوي فتح الورقة التي بين يديه ولكن توفيق منعه من ذلك متعللا بانه لا ياكل مثل هذه المعجنات ليلا ثم مضى أمامه نحو مكتبه وقال :

– أنا عاوزك في حكاية لكن ملخبطاني.

– انت دايما متلخبط يا توفيق.. أنا عاوزك تاخذ المسائل بهداوة وماتنزعجش لأي سبب.. المسائل كلها بسيطة وحلها أبسط منها. وعاوز اقولك أنا عندي لك خبر يساوي عشرة مليون جنيه.!

١٢ الفطير المشلتت!

جلس توفيق أمام الأستاذ عشماوى يستمع إليه فى اهتمام. حاول عشماوى فتح اللفافة التى تحوى الفطير المشلتت، ولكن عشماوى توقف عن ذلك بعد أن صرخ توفيق فى وجهه صرخة مدوية، وبأسلوب يكشف عن مدى غضبه الشديد الذى لا يتناسب مع الموضوع الذى وقع الخلاف بشأنه. ولذلك دقق عشماوى النظر فى وجه توفيق وقال :

– إنت إيه حكايتك بالضبط ؟

– مالها حكايتى.. فيها إيه؟

– أنا شايف إنك عصبى أكثر من اللازم، وحكاية الفطير ما تستاهلش الزعيق دا كله.

– أنا مازعقتش.. أنا صوتى كده.

ضحك الأستاذ عشماوى ضحكة طويلة وقال لتوفيق.

– على العموم مش مشكلة، خلينا فى المهم أحسن.

– وياريت تخش فى الموضوع بسرعة لأن أنا تعبان قوى.

وقال الأستاذ عشماوى متهكما :

– الله يكون فى عونك، شوف يا سيدى.

وراح عشماوى يشرح الموضوع لتوفيق الذى لم يتحمس فى البداية، فالسر الذى كشفه عشماوى يحتمل الاهتمام به أولا ، والأستاذ

عشماوى نفسه أحيانا يقول ما يستحق الاهتمام، وغالبا يكون مجرد خرافات وأوهام. ولكن الذى استرعى اهتمام توفيق هو قول عشماوى إنه اتفق مع الضابط على البدء فى تكوين خلية صغيرة من خمسة أشخاص يمثلون قوى الشعب العامل.

غريبة!! اتفق معه متى وأين؟ هل يقابل عشماوى الضابط من وراء ظهره؟ وهل يثق الضابط فى عشماوى بشكل أكبر من ثقته فى صديقه القديم توفيق؟ ولكن هذا النبأ وإن كان مثيرا إلا أنه كان عاديا بالنسبة لتوفيق، أما الأمر الذى هزه هزا وكاد يفقده وعيه، فهو الاقتراح الذى قدمه عشماوى فى سياق حديثه.

– وأنا شايف يا توفيق ضرورة الإسراع فى تشكيل هذه الخلية، عندنا الضابط وأنت وأنا ونرجس وعاوزين عامل معانا كمان وتبقى المسألة تمام.

وانفجر توفيق فجأة وصاح مستنكرا :

– وإيه علاقة نرجس بموضوع زى ده؟

ورد عشماوى ببرود :

– علاقة متينة جدا، أولا واحدة ست، وأى تنظيم محتاج لعنصر نسائى ـ ثانيا مثقفة وواعية جدا، ثالثا جماهيرية وعلى علاقات حسنة ومتوازنة بالجميع، رابعا وخامسا وعاشرا.. دى زميلتك وصديقتك أيضا.

ولكن توفيق لم يهدأ ولكنه ازداد هياجا، وصاح بصوت عال وهو يغادر مكتبه فى حالة قرف شديدة.

– وأنا بصراحة لا علاقة لى بأى تنظيم فيه الست دى. وبعدين يا أستاذ عشماوى يكون فى علمك أنا لن أسمح لأى مخلوق باستغلال مكتبى إلا فى الأغراض بتاعتى، المحاسبة وبس.

اندفع توفيق كالإعصار خارجا من المكتب، وعشماوى يحاول اللحاق به. وفى الشارع تذكر عشماوى أنه ترك لفة الفطير المشلتت

على المكتب، وحاول إعادة توفيق إلى المكتب، ليس للتفاهم حول مستقبل التنظيم، أو لإعادة رسم خريطة الوطن ولكن من أجل استعادة الفطير فقط، الله يلعنك يا توفيق يا ابن الهايفة، ضيع على الأستاذ عشماوى الاستمتاع بلقمة الفطير المشلتت التى صنعها الحاج محمد الدمياطى بنفسه وبالزبدة الدمياطى التى ليس لها مثيل فى الكون.
ولم يكن هناك سبب لهذا الغضب الذى انتاب توفيق إلا غيرته الشديدة، فهو يحب نرجس ولكن شخصيته وعقده النفسية تجعل بينه وبين صنف النساء ساترا غير منظور، فهو يحبها ولكن ليس بما فيه الكفاية، وهو يشعر بغيرة شديدة عليها ولكنه لا يعلن ذلك ولا يسمح لأحد بأن يكشف سره. وهو يعلم تمام العلم أن الأستاذ عشماوى أكبر منه سنا وأقل منه وسامة وأناقة، ولكنه يقدم بضاعة جيدة هى الكلام، فهو كلمنجى من طراز رفيع، كما أن شهرته تمهد له الطريق إلى قلوب السيدات. ولابد أن اقتراحه بتشكيل اللجنة وضم نرجس إليها هى مكيدة من مكائده هدفها الوحيد اصطياد نرجس ليس إلا، ولكن توفيق لن يسمح بذلك حتى لو أدى الأمر إلى قطع علاقته بكل ما يربطه بحياته الجديدة، والعودة إلى سابق عهده.. ومهما تكن النتائج. فهو لن يسمح بأن يكون جسرا للعشاق أو ممرا للمنافقين والانتهازيين.

اعتكف توفيق فى منزله عدة أيام، فاضطر الأستاذ عشماوى إلى زيارته فى منزله، واستبدت الدهشة بالمحاسب توفيق عندما وقع بصره على الأستاذ عشماوى يقتحم عليه غرفته وفى يده باقة ورد متعددة الألوان. لا يغيظ توفيق فى الأستاذ عشماوى إلا عدم إحساسه وبروده. وبعض الناس يتصور أن هذا البرود هو من سمات الشخصية القوية. ولكن نظرة توفيق لعشماوى كانت تختلف عن نظرة الآخرين. فعشماوى مجرد همباك مخادع وكسول وكذاب أيضا، عرف أجزاء من هنا وهناك، ولكنه يعرف كل شىء وهو نصاب يطمع فى أموال النساء اللاتى يقعن فى غرامه. وتوفيق سيكشفه ويفضحه إذا حاول الإيقاع بنرجس.

ولكن توفيق أخفى مشاعره ورحب بالأستاذ عشماوى عندما وجده أمامه فى غرفته. صحيح أن ترحيبه به كان فاترا، ولكن عشماوى انطلق كعادته فراح يسرد على مسامع توفيق كل الأحداث التى وقعت فى مصر خلال فترة مرضه، وقص عليه بالتفصيل ما جرى فى قهوة كتكوت، ثم زف إليه بشرى موافقة صديقه الضابط على اقتراحه بتشكيل هذه الخلية التى تحدث معه بشأنها. والكارثة الكبرى أن عشماوى حدد يوم الاربعاء القادم للجلسة الأولى وسيكون الاجتماع فى مكتب المحاسب توفيق الساعة الثامنة مساء.

لا حول ولا قوة إلا بالله، عشماوى أصبح صاحب الأمر والنهى فى كل شيء حتى بالنسبة لمكتبه. غمغم توفيق بكلمات غير مفهومة ثم قال :

– واشمعنى مكتبى يعنى، ما تقعدوا فى أى حتة تانية، ثم دا مكتب عمل وأكل عيش وفيه زباين بتجيلى فى الساعة دى، وبعدين أعمل أنا إيه معاهم، اعتذر لهم لأنى عندى اجتماع المفروض إن إحنا نقعد بعيد عن مكاتبنا.

ولم يفاجأ الأستاذ عشماوى باعتراض المحاسب توفيق فقال :

– أنا شخصيا كنت عامل حساب المسألة دى، ولذلك افترض إن إحنا ننقل الاجتماع من مكتبك بعد كده، وهيكون الاجتماع الثانى فى بيتى أنا، والاجتماع الثالث هيكون عند مدام نرجس.

ورد المحاسب توفيق بعصبية :

– يبقى عند نرجس إزاى دى ست متجوزة وبعدين جوزها يقول إيه. وهوه معقول تاخد معاها أربعة رجالة طوال عراض وتروح لجوزها تقوله إيه. دا كلام فارغ ما حدش يوافق.

ورد الأستاذ عشماوى بهدوء :

– وإذا كانت هية موافقة. ورحبت بالفكرة لما عرضتها عليها.

– إمتى وافقت ؟

- امبارح. وبالعكس.. تحمست جدا للفكرة وقالت ياريت تعملوا الاجتماع عندى على طول. وعلى فكرة.

ونطق عشماوى العبارة الأخيرة كأنه يمهد للكشف عن سر خطير. ثم تابع قائلا :

- صاحبك ريحها على الآخر. وتم نقلها من المكان اللى هيه فيه، واستلمت منصبها الجديد.

- منصب إيه الجديد ده ؟ ثم مين صاحبى ده ؟

حضرة الضابط، بتليفون منه نقلها من المكان اللى بتشتكى منه، وأصبحت الآن عضوا فى المكتب الاستشارى للسيد رئيس الجهاز.

- ومين اللى قال للضابط ؟ هيه نرجس!؟

- لا طبعا.. أنا اللى قلتله.

يادى المصيبة الكبرى اللى حطت على دماغك يا توفيق.. هكذا أصبح عشماوى هو همزة الوصل بين الضابط وبقية الناس.

- طيب وانت شفت نرجس فين ؟

فأجاب عشماوى على السؤال ببساطة.

- فى بيتها.. على فكرة.. الراجل جوزها مدهش للغاية، واكتشفت أنه قارىء عظيم وذواقة كمان. تصور قرأ لى روايتى «نهر بلا مصب» واكتشفت أنه فهم الرسالة اللى أنا عاوز أوصلها. مع إن قلة قليلة اللى فهمت المعنى اللى أنا عاوز أوصله. تصور أن أنا لقيت كل كتبى عنده فى المكتبة، وعامل على الهوامش ملاحظات فى غاية الأهمية، ولقيت هناك خلاف بينه وبين نرجس على بعض الملاحظات، وقعدنا نتكلم إحنا التلاتة ومع ذلك ما عرفتش أحل الخلاف، لأن كل واحد عنده حججه ووجهة نظره، ووعدتهم لازم نعمل قاعدة تانية وتالتة لحد ما نوصل لحل. الحقيقة إنه بيت مدهش وأسرة جميلة تستاهل كل خير.

عندما انتهى عشماوى من حديثه كان توفيق فى حالة يرثى لها كمن

اصيب بضربة قاضية. لم يعلق بشيء ولم ينطق بحرف. عشماوى استطاع التسلل إلى بيت نرجس وصار فردا من العائلة. وبالطبع سحرهم بحديثه وبهرهم بشهرته. ونرجس ناعمة ورقيقة وحالمة. وهو يعلم تماما أنها قبلت الزواج من زوجها بدون حب، ولكنها ارتضت به بهدف تكوين أسرة وبناء بيت، وسيكون عشماوى بمثابة المشهيات التى تفتح النفس، فيكون لها زوج هو رب البيت وعشيق يجعل الحياة سهلة وهنية ويساعد على استمرار الحياة. ياللكارثة التى ليس لها مثيل، وتوفيق كالعادة سيخرج من المولد بلا حمص. كانت هذه حالته دائما بسبب تردده وخوفه وعدم قدرته على خوض المعارك فى اللحظة المناسبة. ما العمل الآن وقد ضاع منه كل شيء، صديقه الضابط وحبيبة القلب نرجس وسيكون مجرد عضو على الهامش فى الخلية التى يسيطر عليها عشماوى ويوجهها إلى الجهة التى يريدها، ولكن هذا لن يكون، ولن يمر عشماوى إلى هدفه إلا على جثة توفيق. وعندما طلب عشماوى منه أن يكون حاضرا فى استقبالهم مساء الأربعاء حيث تقرر عقد الاجتماع فى مكتبه، اعتذر توفيق عن عدم حضوره لأنه يشعر بأن مرضه سيطول، ثم مد يده بمفتاح المكتب قائلا له :

– على العموم المكتب مكتبك وانتو فيكو البركة، وأنا قلبى معاكو، واللى يريده ربنا هيكون.

ومد عشماوى يده والتقط المفتاح، ثم قال لتوفيق.

– إن شاء الله على يوم الاربع هتقوم زى السكة الحديد وهتحضر معانا، عشان نبدأ الانطلاقة ونعمل اللازم وكل شيء هيكون على ما يرام.

وقال توفيق وهو يصطنع المرض :

– على كل حال أنا حاسس بنفسى وحاسس إن أنا تعبان قوى.

ورد عشماوى معقبا :

– على كل حال حاول، وإذا ما قدرتش تقوم إحنا هنجتمع فى

الميعاد وبعديها هنيجي نزورك هنا ونبلغك باللى حصل. وبعدين إحنا مش هنجتمع مرة واحدة وبعدين كل واحد يروح لحاله، دى هتبقى رفقة زى رفقة السلاح، يعنى جواز كاثوليكي من غير طلاق.

وضحك الأستاذ ضحكة عالية وقال وهو يستأذن فى الانصراف :

– بس نصيحة لك من أخوك حبيبك بلاش تستسلم للمرض، لأن الاجتماع الجاى دا اجتماع تاريخى ويتوقف عليه حاجات كتير قوى، ولو حسيت إنك عيان بصحيح يبقى نكلم صاحبك الضابط يدخلك مستشفى عسكرى، لأن الخدمة هناك تمام والدكاترة تمام وبعدين مش هاندفع حاجة.

ياللصفاقة التى ليس لها مثيل، يقولون إن الأديب حساس.. أين هى الحساسية التى يتمتع بها هذا الرجل تصوروا، هو الذى سيتكلم مع الضابط صاحبى، الضابط صاحبى أنا ولكن هو واسطتى إليه! طيب.. كيف ؟ وبأمارة إيه؟ ولكن كله كوم ودخوله بيت نرجس كوم آخر. ليه يا نرجس يا بنت الناس ؟ توليت ذبح العبد لله مرتين، مرة فى البداية ومرة فى النهاية. ولكن من الملوم فى هذا الأمر؟ لقد كانت فى البداية طوع إشارة منك يا توفيق، ولكنك جبان ومتردد ولا تحسن التعامل مع النساء. وفى هذه المرة جاءت إليك بنفسها وطلبت منك أن تتدخل مع الضابط صاحبك لكى ينقلها إلى عمل مريح ولكنك غطرشت وأهملت. ساذج أنت يا توفيق ولن تجد لنفسك مكانا تحت الشمس. وهذا هو العشماوى قدمته لصديقك الضابط فجلس على العرش وتربع. هو الذى قام بتشكيل اللجنة وهو الذى حدد أعضاءها، وهو الذى اختار نرجس باعتبارها ممثلة للمرأة، وهو الذى اختار مكتبى أنا ليكون محلا مختارا للجنة. ماذا تبقى لك يا توفيق؟ وإلى متى تظل حبيس شرنقة نفسك؟ وهل ستقنع حتى نهاية العمر بموقف المتفرج؟ وهل ستدع أستاذ عشماوى يمر ويستمتع بكل شيء؟ بينما تبقى محلك سر وتذوب كالشمعة حسرة وأسفا؟

بسبب القلق والأرق لم يذق توفيق طعم النوم حتى أشرقت الشمس، ثم صلاة المغرب. وبالرغم من أنه نام طويلا إلا أنه لم يستطع النهوض من الفراش، شعر بجفاف شديد في حلقه وبألم شديد في مفاصله وبتكسير في عظامه واستدعت أمه الطبيب فاكتشف أن حرارته مرتفعة، وأنه مريض بالحمى ويحتاج علاجه إلى وقت طويل.

عندما فتح توفيق عينيه بعد ثلاثة أيام كان غارقا في بحر من العرق، وكان بعينيه غشاوة فلم يستطع أن يتبين ملامح الذين أحاطوا بسريره. ولكنه بعد لحظات اكتشف أن المحيطين بسريره هم صديقه الضابط والأستاذ عشماوى ونرجس ولكن دهشته تضاعفت عندما رأى الواد ريعو جرسون قهوة كتكوت يجلس بينهم، وما الذى جاء بالولد ريعو هنا، لابد أن المعلم كتكوت أرسله للاطمئنان على صحته. وتمالك توفيق نفسه ونهض أو بمعنى أصح حاول النهوض، ولكنه فشل في ذلك فاكتفى بوضع عدة وسائد تحت رأسه وراح يجفف عرقه بفوطة كبيرة، ثم طلب من أمه كوبا من مشروب النعناع، ولكن نرجس تطوعت بإعداد كوب النعناع. وعندما حاول الأستاذ عشماوى أن يلحق بها إلى المطبخ للمساعدة، شخط توفيق فى عشماوى شخطة أعادته إلى مقعده بدون تعليق. ونظر توفيق إلى عشماوى ثم نظر مرة أخرى إلى ريعو ثم سأله :

– المعلم كتكوت بعتك؟

وتدخل عشماوى فى الحديث وقال لتوفيق :

– أولا الحمد لله على سلامتك.

ثم أشار نحو ريعو وقال :

– دا العامل اللى قلتلك عليه.

ولم يَبْدُ على توفيق أنه فهم شيئا، ولكنه عندما حاول أن يفتح فمه، نظر عشماوى إلى ريعو وأشار له بالخروج قائلا له :

– قوم يا ريعو إنت روح القهوة شوف شغلك وأجاب ريعو بسرعة:

ـ أنا ماعنديش شغل الليلة دى أنا فى أجازة.

ـ زى بعضه روح إنت الوقت وبعدين هابقى أتصل بك.

وقف ريعو استعدادا للرحيل. وقبل أن يذهب ألقى سؤالا على عشماوى.

ـ والاجتماع الجاى إمتى؟

ـ أنا هابقى أبلغك.

ـ وهنا فى بيت المحاسب توفيق برضه؟

ـ بعدين هاقولك.. بعدين.

تساءل توفيق :

ـ إيه اللى جاب ريعو معاكو ؟

ـ ما هو دا العامل اللى قلتلك عليه .

ـ عامل إيه؟ مش فاهم.

ـ العامل اللى هينضم للخلية بتاعتنا .

هب توفيق من فراشه مذعورا وقال :

ـ يا خبر اسود.. ريعو فى الخلية . ورد عشماوى قائلا :

ـ وفيها إيه ؟

ـ دا جرسون، يعنى خدام مش عامل تجيبوا خدام فى الخلية ؟

نفخ عشماوى بحرارة ثم قال :

ـ إنت نظرتك للناس نظرة طبقية فوقية وحقيرة للغاية، إنت يا توفيق لا تصلح فى العمل السياسى على الإطلاق.

كانت نرجس قد انتهت من عمل كوب النعناع. وكانت أصوات توفيق وعشماوى تتصاعد فى فضاء الحجرة ويتردد صداها بين الجدران. فى نفس اللحظة التى دخلت فيها نرجس الحجرة، كانت ثورة توفيق قد بلغت مداها، فلم يشعر بنفسه وهو يلتقط كوب النعناع ويقذف به نحو الحائط. وانكسر الكوب وتتطايرت شظاياه فى كل اتجاه، وأصابت الشظايا وجه نرجس وسال الدم على خدها وأسرع

الأستاذ عشماوى يمسح الدم بمنديل انتزعه من جيبه، وصرخت نرجس من شدة الألم، وهرعت الأم إلى الحجرة تستطلع ما جرى، وجن جنون توفيق فصرخ فى وجه عشماوى ونرجس يأمرهما بمغادرة المنزل وضربت الأم صدرها بيدها وصاحت.

– يا عيب الشوم يا بنى إيه اللى، جرالك يا توفيق!

وقال عشماوى فى صوت مهذب.

– مفيش حاجة يا ست الحاجة، دا من تأثير الحرارة العالية اللى كانت عند توفيق.

واستفزت هذه العبارة توفيق بشدة فازداد هياجه وارتفع صياحه، واستبد الخوف بنرجس فولت هاربة إلى الشارع وصاح توفيق بجنون :

– أنا مش م الصنف دا يا أستاذ عشماوى قال إيه خلية قال، دا شغل بولوتيكا دا، وجايبين واحد جرسون للخلية، خلية يا عشماوى يا نصاب، والله العظيم لا فضحكم فضيحة بجلاجل. قال إيه قوى الشعب العامل الشعب العامل واللا الشعب الجرسون. يا بتوع التلات ورقات يا ولاد شيكا بيكا. وفتح توفيق الشباك وراح يصرخ فى الشارع صرخات هستيرية، بينما كان يتصبب عرقا بشدة واستأذن الأستاذ عشماوى من الحاجة وخرج مسرعا. ومن قهوة كتكوت اتصل بالضابط وبعد ساعة كانت سيارة إسعاف تقف أمام بيت توفيق، وعندما انطلقت عائدة كان بداخلها المحاسب توفيق فى طريقه إلى مستشفى المجاذيب!

١٤ السفيرة عزيزة !

بالطبع لم يكن مسموحا لأحد من النساء دخول قهوة كتكوت . ولكن فتاة واحدة كان لها هذا الحق وكان اسمها عزيزة ، كان من حقها دخول القهوة والطواف على الزبائن وعرض ما تحمله من أوراق اليانصيب ولم يحدث في أى وقت أن أحد الزبائن كسب شيئا من وراء عملية شراء أوراق اليانصيب خصوصا التى توزعها عزيزة ولكن بعض الزبائن ظلوا مواظبين على شراء أوراق اليانصيب من عزيزة ، حتى المعلم كتكوت نفسه كان يسعد برؤيتها ، وأحيانا كان يغمز بعينه للواد ريعو الجرسون ليقدم لها واحد حلبة حصى ، وهو المشروب الذى كانت تفضله عزيزة ومقابل الواحد حلبة حصا كانت عزيزة تشارك الواد ريعو فى تنظيف القهوة وكنس الرصيف وأحيانا كانت تشارك عم عبده القهوجى فى غسيل الأكواب بعد إغلاق القهوة أما عزيزة نفسها فكانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، جسمها (متقصل) .. كما كان يقول ريعو ـ لها وجه مليح وابتسامة حلوة ، وكانت لها غمازتان تظهران بوضوح على خديها كلما ابتسمت ، وكان الواد ريعو يضرب جبهته بكفه ويقول فى لوعة (يا سلام لو تفرج يا جدعان) وكان عم عبده القهوجى يسأله فى استفزاز هتعمل إيه يعنى ؟ ويرد الواد ريعو قائلا :

– هتجوز عزيزة ونعيش سوا فى التبات والنبات .

– هو انت لاقى تحلق !

– مانا بقولك لما تفرج ..

– وهتفرج منين

– ورقة يانصيب تكسب البريمو .

وكانت شلة الادباء التى تجلس على قهوة كتكوت هم أفضل الزبائن عند عزيزة ، كتب شاعر شاب منهم قصيدة بعنوان .. عزيزة .. وقرأها أمامها كادت تطير فرحا . وقال لها أستاذ الفن الشعبى عكاشة ذات مرة .

– انت فيك شبه كبير من عزيزة المزاتية .

– عزيزة مين دى يا أستاذ أنا والله ما أعرفها.

وقال لها الأستاذ عكاشة مطمئنا :

– عزيزة المزاتية شخصية من شخصيات التغريبة الهلالية .

وتلفتت عزيزة حولها ، ثم أسرعت بالانصراف ، ولم تفهم شيئا وكان الوحيد من شلة الأدباء الذى يضايقه وجود عزيزة هو الأستاذ طلبة ، وهو الموظف بمصلحة الكهرباء ومواظب على كتابة قصص قصيرة ، ولكنه لم ينجح فى نشر أى قصة منها ، فقد كانت القصة من النوع الذى يأخذ طريقه بسهولة إلى سلة المهملات. ولما اشتد به اليأس أصدر مجموعة قصص على حسابه بعنوان « الهاوية » ونشر صورته على الغلاف وقد وضع قبضة يده تحت ذقنه وكتب تحت الصورة اسمه «الأستاذ طلبة عبد الستار»! ووزع بعض نسخ المجموعة على بعض المكتبات بالجيزة وكان يسأل أصحابها بين الحين والآخر عن مصير النسخ ولكنه كان يصدم فى كل مرة بأن النسخ مكانها لم تنقص نسخة واحدة فى أى يوم . وكان أحيانا عندما تجمعه مناسبة مع بعض الأدباء الشبان يتساءل فى ضيق شديد :

– ما هو السر فى اشتهار بعض الادباء وذيوع صيتهم ، بينما يصيب بعض الأدباء الأفول ويلفهم الصمت ويذهب إنتاجهم هباء وكان

يتحمس دائما للشاعر إسماعيل عبد الواحد ، ويؤكد أنه لا يقل قامة عن الشاعر أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ! ولم يفصح الأستاذ طلبة فى أى وقت عن شخصية الشاعر إسماعيل عبد الواحد ، ولم يكشف فى أى وقت عن نماذج من شعره ، وكان الأستاذ طلبة يجلس صامتا فى حضور الأدباء المشاهير ، ولكنه كان يتبجح فى الكلام عندما يكون جالسا مع بعض الأدباء الشبان أو عند حضور عزيزة ببضاعتها من أوراق اليانصيب ، وكان يعتب أحيانا على الأدباء احتفالهم بهذه البنت الصايعة ، وكان ينسب إلى أوراق اليانصيب سر ضعف الناس وعميق صبرهم فهذه الأوراق تجعلهم فى حالة انتظار للمجهول الذى يأتى فجأة فيحل مشاكلهم كلها ويوفر الحياة الكريمة لصاحب النصيب ، ثم حدث ذات عصرية أنه جاء مبكرا على غير العادة وجلس على رصيف القهوة وكان الجو حارا والقهوة خالية تقريبا من الزبائن عندما جاءت البنت عزيزة تحمل أوراق اليانصيب ، وعندما اقتربت من مكان الأستاذ طلبة واكتشفت أنه هو الجالس هناك ، فرت هاربة كغزالة اكتشفت وجود الصياد على مقربة منها ، نادى عليها الأستاذ طلبة بصوت عال فتوقفت ونظرت نحوه مندهشة وقالت فى صوت ملون بالخوف .

– أنا يا بيه ؟

– فيه حد غيرك هنا اسمه عزيزة ؟

وزحفت عزيزة نحوه وهى تتوجس شرا حتى أصبحت على مسافة قريبة من مجلسه ، ولكنه أشار إليها بالاقتراب أكثر ، ولأول مرة فى حياته ترتسم على فمه شبح ابتسامة مما شجع عزيزة على الاقتراب ، ومد يده نحوها وأخذ أوراق اليانصيب منها وراح يلقى عليها نظرة ، ولكنه تعمد أن يلمس يدها بأصابعه ، ثم راح يختلس النظر إليها من فوق لتحت ، البنت فعلا ملفوفة ولولا بعض الشحوب الذى يبدو على وجهها من سوء التغذية لكانت أحق البنات بلقب السفيرة عزيزة ، اختار الأستاذ طلبة بعض أوراق اليانصيب وأعطاها ثمنها وفوقه قرشين

بقشيشا لها وعندما قالت له انها تقاضت أكثر من حقها ، أجابها وهو يبتسم :

– انت تستاهلي كل خير ياست عزيزة .

ست عزيزة مرة واحدة .. ما هو سر التغيير الذى طرأ على الأستاذ طلبة ؟ لقد كان ينظر إليها شزرا ويرسم على وجهه علامات الغضب كلما رآها ، وتمنت عزيزة أن تفوز إحدى الأوراق التى اشتراها ليستمر التعاون بينهما على هذا النحو ، وأصبح من عادة الأستاذ طلبة أن يحضر كل يوم فى هذا الوقت المبكر لكى ينفرد بعزيزة ولكن عزيزة لسوء الحظ اختفت فى الأيام الثلاثة الأولى ، ثم ظهرت فى اليوم الرابع ، وعندما اقتربت منه جاءت تتقصع وقد أضاء وجهها بابتسامة عريضة ، واستقبلها الأستاذ طلبة مرحبا وسألها عن سر غيابها فى الأيام الماضية فردت بأنها كانت تشعر بالتعب وكان صوتها مبحوحا كأنها تعانى من نزلة برد ثم تناول ورقة يانصيب وأعطاها ورقة بخمسة قروش ، ولما مدت له يدها بالباقى أزاح يدها بعيدا وقال لها :

– اشترى برتقال واعصريه وخديه مع أسبرين عشان البرد يروح ثم ابتسم وقال :

– مش عاوز أشوفك عيانه ، اللى زيك حرام يعيا .

ابتسمت عزيزة فى دلال ، وقبل أن تغادر القهوة وقفت على الرصيف وألقت نظرة على الأستاذ طلبة فاكتشفت أنه يتفرس فيها بطريقة أشاعت الخوف فى نفسها ، ولكنها مع ذلك ابتسمت له ابتاسمة مشجعة ثم مضت واختفت عن الأنظار .

ما الذى غير موقف الأستاذ طلبة من عزيزة ؟ وماذا يريد منها على وجه التحديد؟ يا سلام لو طلبها الأستاذ للزواج وعاشت معه فى شقة كبقية النساء . لقد قضت عمرها كله تحلم برجل مثل الأستاذ طلبة ينتشلها من هذا الشقاء الذى لا تبدو له نهاية ،ويخلصها من أمها العمياء التى تقضى الوقت كله فى عراك مع أبيها أحيانا بسبب وأغلب

الوقت بلا أسباب ، وأبوها الشيال الذى يقضى نهاره على رصيف المحطة بحثا عن لقمة العيش ، ويقضى جانبا من ليله فى الحانة التى تقدم البوظة للزبائن وعندما يعود مخمورا تدب الخناقة بينه وبين زوجته العمياء ولا تنفض الخناقة إلا بعد أن تنتهى الزوجة من تفتيش هدومه والاستيلاء على القروش القليلة التى تبقت معه.. أما أخوتها الذكور فهم صياع وإن كانوا يساهمون بمجهودهم العضلى فى مصروف البيت ، فهم يقومون بخطف كل أنواع الخضراوات من عربات الكارو التى تنقل خيرات الريف من الحقول إلى سوق الخضار بالعاصمة وأحيانا يحصل العيال على أكثر من حاجة البيت فيقومون بعرض ما سرقوه للبيع على الرصيف المجاور لمسكنهم أما المسكن فهو لا يمت للمساكن بصلة . إنه إسطبل خيول يملكه شيخ عربجية الجيزة ، وقد سمح للرجل الشقيان والد عزيزة بالسكن فيه بدون أجرة إكراما للمرأة الكفيفة زوجته ومن يومها والعائلة تسكن مع حصانين وبغل وعدة حمير . ولكنه وضع أفضل من النوم على الرصيف . يا سلام : يا ناس هل يأتى يوم يكون لعزيزة شقة خاصة وتليفزيون وستارة على النافذة وكنبة تجلس عليها لتشاهد البرامج يمكن للحلم أن يتحقق لو تزوجت من الأستاذ طلبة ، صحيح أن فارق السن كبير ، ولكن .. ما دخل السن فى السعادة كان الوقت مساء عندما وصلت عزيزة إلى القهوة ، وكان الجو حارا، وشلة الادباء تجلس على الرصيف ومعهم الأستاذ طلبة ، وقدمت الأوراق بيدها للأستاذ وتعمدت أن ترسم على شفتيها ابتسامة عريضة ، ولما لم ينتبه الأستاذ طلبة لوجودها إلى جانبه ، مدت يدها وقرصته فى كتفه ، فلما وقع بصره عليها ظهر الغضب الشديد على وجهه وثار ثورة عارمة ، واستبد الذعر بعزيزة ففرت هاربة بينما صوت الأستاذ طلبة الغاضب يطاردها ، الأمر الذى شد انتباه الزبائن الجالسين على الرصيف ، مما دفع أحدهم إلى ملاحقة البنت والقبض عليها والعودة بها إلى حيث تجلس شلة الأدباء

ظنا من الرجل أن البنت سرقت شيئا من متعلقاتهم ، غير أن الأستاذ عكاشة شكر الرجل الطيب الذى طاردها وأشار عليه بإطلاق سراحها ، وطيب خاطر البنت وأخرج من جيبه بعض الأوراق المالية ، وعندماحاول إعطاءها لعزيزة رفضت بشدة وانخرطت فى بكاء شديد ، وفى ذلك المساء عاتب الأستاذ عكاشة صديقه الأستاذ طلبة لمسلكه الغريب مع البنت عزيزة خصوصا وأن غضبه الشديد لم يكن له مبرر أو سبب وقد اعتذر بشدة عما بدر منه تجاه عزيزة ، وبرر موقفه بأنه متوتر الأعصاب بسبب مرض أخته الوحيدة التى تعانى من إصابة بالسرطان بالرغم من أنها لا تزال شابة وأما لطفلين ، ووعد الجميع بالاعتذار لعزيزة وتعويضها عما سببه لها من إيذاء .

مضت أيام كثيرة قبل أن يلتقى طلبة بعزيزة فى قهوة كتكوت وعندما وقع بصره عليها نهض من مكانه واتجه نحوها ، ولكنها تجمدت فى مكانها واستبد بها الذعر وهمت بالفرار . ولكن الابتسامة العريضة التى ارتسمت على شفتى الأستاذ طلبة بعثت الطمأنينة فى نفسها فتوقفت مكانها وعندما اقترب طلبة منها ربت على كتفها وأبدى اعتذاره الشديد لها ، كان طلبة لطيفا مع عزيزة إلى الدرجة التى قبلت اعتذاره وذهبت معه إلى حيث يجلس وعرضت عليه أوراق اليانصيب واختار منها ثلاث ورقات ثمنها ثلاثة قروش ، ثم نقدها عشرة قروش وترك لها الباقى على سبيل البقشيش ، ووقفت عزيزة تدعو للأستاذ طلبة بالصحة وطول العمر ، وصفق الأستاذ طلبة بشدة وعندما جاء الواد ريعو طلب منه واحد حلبة حصا لعزيزة وعندما انصرف ريعو تناول الأستاذ نسخة من كتابه وناولها لعزيزة ، وعندما شاهدت صورته على الغلاف استبدت بها الفرحة الشديدة لدرجة أنها أطلقت زغرودة وسألته بسذاجة :

– همه كاتبين عنك فى الجرنال ده .

وشرح لها الأستاذ طلبة الأمر ، فهذا الذى قدمه لها هو كتاب من

تأليفه وصورته منشورة على الغلاف باعتباره المؤلف ، وارعشت عزيزة حاجبيها وقالت بأسف :

- يا خسارة يا ريتنى كنت أعرف أقرا واكتب .

ورد الأستاذ طلبة قائلا :

- دى مسألة بسيطة وسيبيها على أنا !

لم تلفت نظرها عبارة الأستاذ طلبة الأخيرة ، فشكرته بشدة على كرمه وعلى الواحد حلبة حصا ، وانصرفت إلى داخل القهوة واتخذت لنفسها ركنا على يمين (النصبة) حيث جاء الواد ريعو بكوب الحلبة الحصا . ولما شاهد ريعو النسخة من كتاب الأستاذ بين يدى عزيزة اختطفه من بين يديها وراح يتفرس فى صورة الأستاذ ، ثم أعاد النسخة إليها وجرى مسرعا إلى حيث يجلس طلبة ، وطلب منه نسخة أخرى (زى اللى مع البنت عزيزة) ولكن الأستاذ طلبة اعتذر لعدم وجود نسخ أخرى معه ، ولكن ريعو أشار إلى كومة منها موضوعة على المائدة الموجودة أمامه ، ولكن الأستاذ طلبة اعتذر مرة أخرى لأنها جميعا مهداة إلى بعض النقاد وعليها إهداءات شخصية بأسمائهم، ووعده بإهدائه نسخة له مع إهداء منه شخصيا ، ولكن الولد ريعو لم يقتنع بهذا الكلام ووقف يصرخ بصوت عال أمام الأستاذ طلبة .

- بقى تدى البنت الصايعة دى كتاب وأنا لا ، هيه إيه الحكاية ؟ على الاقل أنا باعرف أفك الخط وعزيزة دى ماتعرفش السما م العمى ، هيه كوسة !! واستفزت كلمة كوسة الأستاذ طلبة فنهض من مكانه ليضرب الواد ريعو بالقلم على وجهه ، وصرخ ريعو بطريقة مبالغ فيها وكأن الأستاذ طلبة أطلق عليه رصاصة ، فخرج المعلم كتكوت بنفسه لمعرفة حقيقة الأمر وبادره الأستاذ طلبة شاكيا له قلة أدب الواد ريعو وعدم تربيته فلطش المعلم كتكوت الواد ريعو قلما على قفاه ، فقد كان المعلم يؤمن بالنظرية الاقتصادية التى تقول (الزبون دائما على حق) ولكن ريعو صاح مرة أخرى محتجا على تصرف المعلم قبل أن يعرف أصل

الحكاية ، وتساءل المعلم قائلا :

– وإيه أصل الحكاية ياد ؟

وقال ريعو والدموع تلمع في عينيه :

– يا معلم أنا ما عملتش حاجة الأستاذ عنده كتاب عليه صورته ، خدت عزيزة ، كتاب منهم ، جيت طلبت منه كتاب مارضيش . قلت له تدى كتاب لعزيزة الجاموسة وأنا لا ، راح ضاربني بالقلم

هرش المعلم في ذقنه النابتة وقال للأستاذ طلبة :

– كتاب إيه دا يا أستاذ ؟

– دا كتاب من تاليفي أنا يا معلم ، وبعدين أنا كنت شخطت في البنت عزيزة وحبيت أصالحها فاهديتها نسخة ، يقوم الواد اللي ماعندوش أدب يقوللي قدام الناس إيه شغل الكوسة ده ؟ أنت يرضيك الكلام ده ؟

– حقك علي ، هوه أصله مسحوب من لسانه ، لكن حقك على أنا ، امسحها في دقني أنا .

وسحب المعلم الواد ريعو من يده ودخل القهوة ، ثم ساله – كتاب إيه يا واد ؟

– وأنا إيش عرفني أنا يامعلم ، أهو كتاب بيقول انه هوه اللي كتبه

وتفرس المعلم في وجه البنت عزيزة وقال لها :

– وريني الكتاب دا يابت .

وناولته الكتاب في صمت ، وجلس المعلم على مقعده الدائم في مواجهة (النصبة) وتفرس بعض الوقت في صورة الأستاذ طلبة ، ثم راح يقلب صفحات الكتاب ببطء في البداية ثم بسرعة بعد ذلك ـ ولما استعرض صفحات الكتاب أغلقه ووضعه أمامه وقال لريعو :

– وإيه اللي عاجبك في الكتاب ؟ دا كله كلام مالوش لازمة ، لا واحدة عريانة ولا صورة حلوة ، وبعدين تقوم تقل أدبك ع الأستاذ ، مش هتبطل قلة أدبك دي .

وبينما المناقشة محتدمة بين المعلم والجرسون انسحبت البنت عزيزة من القهوة فى هدوء وغادرت الميدان كله واختفت فى زحام شارع عباس ولمدة أسابيع مرت والولد يحكى ما حدث بينه وبين الأستاذ طلبة ، وعن الكتاب الذى أهداه الأديب الأستاذ طلبة للبنت عزيزة بتاعة اليانصيب وعندما حكى القصة للشيخ شهاب كبير الأدباء أضاف إليها أنه ضبط الأستاذ أكثر من مرة وهو ينظر إلى البنت عزيزة نظرات من إياها ، دا راجل كبير لكنه مش مظبوط ثم هوه فاهم إيه ؟ دنا لو قلت للراجل أبوها دا ممكن يقتلها ويشرب من دمها ، يمكن يقتله هو راخر ولما سمع الشيخ شهاب بالحكاية ضرب كفا بكف وقال ساخرا :

بقى الأستاذ طلبة رفض يدينى كتاب ويدى البنت عزيزة ! وقال ريعو للشيخ شهاب .

– الحقيقة يا مولانا الشيخ كل الأدباتية اللى بيقعدوا هنا ناس محترمين ، إلا طلبة دا ، طبعه حاجة تانية ، وبلاش الواحد يتكلم .

ولما شجعه الشيخ شهاب على الكلام قال ريعو :

– أقول إيه بس يا مولانا ، طب وحياة دى النعمة (وأشار إلى كوب الشاى) أنا شايفه بعينى دى اللى هياكلها الدود ، وهو بيطبطب على البنت

– قدام الناس يا واد يا ريعو ؟ دا معقول ؟

– ما كانش فيه ناس يا عم الشيخ ، كان هوه بس الى ع الرصيف ، وواحد فلاح كان قاعد بعيد وبيشرب دخان .

وغاب الأستاذ طلبة فترة من الوقت فلم يشاهده أحد فى القهوة واختفت البنت عزيزة أيضا فلم يعد يشاهدها أحد فى أى مكان ولكن الأستاذ طلبة ظهر فجأة وحول رقبته كرافتة سوداء ، فقد انتقلت أخته إلى رحمة الله بعد صراع طويل مع المرض ، وعاتبه أصدقاؤه من شلة الأدباء وقال الأستاذ عكاشة :

– طيب اتصل باى واحد منا ، أو أنشر نعيا فى الجرايد :

ورد الأستاذ طلبة قائلا :

– والله يا إخواتي أنا كنت في حالة سيئة للغاية ، انتو عارفين إنها أختي الوحيدة ، واضطررت إلى دفنها في قريتي مع والدتها حسب وصيتها ، والحقيقة أنني كنت في حالة دوخة أشد من دوخة السكران ، والكارثة أنها تركت لي طفلين لا أعرف كيف اتصرف معهما ، وهذا هو السبب الذي جعلني الازم شقتي لا أبارحها إلا للشديد القوى لقد انتهت حياة الفرح والمرح وجاءت أيام الشدة والتعاسة .

وقال له الأستاذ الشيخ شهاب :

– ما عليك يا رجل ، فلا أنت أول من واجه مثل هذه الكوارث ولن تكون آخرهم .. المهم أن تنهض من بين أنقاض المصائب وتواصل الحياة من جديد . وتساءل الأستاذ طلبة قائلا :

– كيف يا سيدنا الشيخ إن الكلام سهل كما تعرف ولكن الواقع صعب !

وانبرى الشيخ شهاب يقول بحماس شديد :

– لو أنا مكانك في هذه الورطة كنت أتزوج من بنت غلبانة تريد الاستقرار وترغب في الستر ، تكون قريبة إلى قلبي ومربية للأطفال الأيتام الذين تركتهم المرحومة أختك . وأظن أن دخلك يحقق لك هذه الأهداف .

– وأين هذه البنت يا مولانا الشيخ ؟ وأنت تعرف بنات هذه الأيام اللواتي يشغفن بالموضة وبالسينما والأغاني والحفلات .

– أنا لا أقصد هذه النوعية من البنات يا سيد طلبة أنا أتكلم عن بنات من نوع آخر ، بنات يحلمن بحياة مستقرة وكريمة وكل ما يبحثن عنه هو الستر في ظل رجل طيب وبار ويستطيع حمايتهن .

– ومن أين لي بهذه البنت يا عمنا الشيخ ؟

– البنت عزيزة بياعة اليانصيب .

ألقى الشيخ شهاب الذي كان يهوى النكتة ويحب المزاح بهذه

القنبلة التي هزت القهوة هزا ، وثار الأستاذ طلبة ثورة غطت على كل شيء في القهوة حتى صوت الراديو وصاح : الأستاذ طلبة لم يعد غير هذا الولد الصايع ريعو يؤثر فيك يا عمنا الشيخ ؟ أنت رجل الدين والفقه والمنطق تتأثر بكلام هذا الواد التافه ؟ يا له من زمن قبيح ورديء يا عم الشيخ ، لو سمع كلامك أحد من الصالحين من أهل زماننا لصاح على الفور .. الآن بطن الأرض خير لنا من ظهرها .

كانت الضجة قد جذبت الكثيرين من داخل القهوة إلى الرصيف ، وكان من بينهم المعلم كتكوت والولد ريعو أيضا وما أن وقع بصر الأستاذ طلبة على ريعو حتى ثار بشدة وهدد بإبلاغ الشرطة لقيامه بتلويث سمعته ونشر الإشاعات ضده مع سبق الإصرار والترصد ، ثم نظر إلى المعلم كتكوت وقال :

– وأنت كمان يا معلم كتكوت عاجباك عمايل الواد الصايع ده ؟ عاجباك الإشاعات اللي عمال ينشرها ضدي ، حتى الشيخ شهاب صدق الكلام بتاعه ؟ وعلى كل حال يا معلم ـ أنا أو الواد ده في القهوة .

ثم ألقى السلام على شلة الأدباء وانصرف غاضبا . وحاول المعلم أن يعتذر لأفراد الشلة ، وعلل بعضهم سر ثورة الأستاذ بظروفه الصعبة بعد موت شقيقته ، وعلق الأستاذ عكاشة قائلا :

– بسبب إن الواد ريعو غلطان ولازم يتأدب .

وقال المعلم في صوت خفيض :

– أنا مش ممكن أخللي جرسون قليل الأدب عندي ، بس إنتو عارفين الظروف ، النهاردة الزبون كتير الحمد لله ، بس الصنايعي مفيش ، عشان كده ولاد الكلاب افتروا ع الآخر ، والواد ريعو بقى بيبوق في وشي دلوقت .. كان يستجرى الصنايعي يبص في عيني وأنا با كلمه ، الدنيا أتغيرت يا بيه ثم وعد شلة الأدباء بالذهاب للأستاذ طلبة في أي مكان ويعتذر له عما بدر من الواد ريعو ، وقال واثقا من نفسه .

– وهاخد الواد ريعو معايا وأخليه يبوس إيده ورجله كمان !
وقال الأستاذ عكاشة :
– المسألة مش محتاجة بوس الإيد والرجل . إحنا حنسترضيه بس الواد ريعو لازم يتحاسب يا معلم ، وإذا تكرر منه هذا العمل سنتضامن جميعا مع الأستاذ طلبة .. أنا بقولك أهه !
ولما كان للأستاذ عكاشة وضع خاص عند المعلم كتكوت فقد قال المعلم :
– إيدى على كتفك يا سعادة البيه ، هاتلى جرسون تانى وأنا هاطرده دلوقت ، ولكن الشيخ شهاب كان له رأى آخر ، قال بصوت غير مسموع .
– وهو ريعو عمل إيه بس ؟ إحنا مانجيش إلا ع الفقير ؟! كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل ، فقام الجميع وانصرف كل منهم إلى بيته .

١٥ عزيزة وطلبة !

غابت شلة الأدباء عن قهوة كتكوت ثلاثة أيام كاملة. لم يعرف أحد سبب غيابهم، ولكن المعلم كتكوت تصور أن غيابهم كان وراء تصرف الواد ريعو مع الأستاذ طلبة، وانتهز المعلم فرصة تعثر الواد ريعو وسقوط الصينية التي كان يحملها على كفه وتحطم ما عليها من أكواب. واندفع المعلم نحوه كالثور الهائج ولطمه لطمة شديدة على وجهه جعلت الشرر يتطاير من عين ريعو.

وقال له المعلم وهو يسب الأخضرين :

– شاطر تطفش الزباين وكمان تكسر الكوبيات، ما تغور في داهية يا أخي وتريحني من وشك.

وانزوى ريعو خلف باب القهوة مخفيا عينه المتورمة بقبضة يده. وتركه المعلم في وقفته ولم يبد أي اهتمام به، وراح يحمل الطلبات بنفسه إلى الزبائن. ولما شعر بالتعب واستبد به الغيظ توجه نحو مخبأ الواد ريعو وفي نيته ضربه علقة من النوع الذي أوصى به سيدي حسان اليماني. ولكن دهشته كانت كبيرة عندما لم يجد ريعو خلف الباب. وخطف المعلم نظرة خاصة على القهوة كلها ولم يلمح أي أثر لريعو، فاقتحم النصبة وفتشها وفتش المخزن الملحق بها ولم يعثر على ريعو ووقف المعلم عند باب النصبة وراح يضرب كفا بكف ويتساءل بصوت عال :

– راح فين ده؟ الأرض بلعته. ثم قال مهددا :

– طيب يا ريعو الكلب بس لما عينى تقع عليك !

عانى المعلم كتكوت كثيرا بعد غياب الواد ريعو.. ولام المعلم نفسه بشدة عندما عادت شلة الأدباء إلى القهوة واكتشف أن غيابهم لم يكن له علاقة بما وقع بين الأستاذ طلبة وريعو. واستعان المعلم بزبون للقهوة أبدى رغبته فى المساعدة، وهو موظف سابق على المعاش، وكان عليه دين للقهوة بلغ عدة جنيهات فشل فى تدبيره عدة شهور، ولعله وجدها مناسبة لإرضاء المعلم، وفى الوقت نفسه كانت فرصة له لمعاودة شرب الشاى الذى حرم نفسه منه فترة طويلة، وبالطبع لم يكن أحد يضيف ثمن هذا الشاى على الحساب القديم، وعندما طلب منه المعلم أن يستريح شاكرا له خدماته، رد بانفعال :

– أنت يا معلم طول عمرك بتخدم الناس، فيها إيه لما نخدمك.

ولكن لا المعلم ولا الموظف المتطوع نجحا فى سد الفراغ الذى تركه الواد ريعو. ولذلك قرر المعلم آخر الليل أن يدوس على كبريائه وأن يذهب فى الصباح إلى حيث يسكن ريعو ليجره من يده إلى القهوة، حتى لو اضطر المعلم إلى لطع بوسة على رأس الواد ريعو، والاعتذار له عما بدر منه!

فى الصباح الباكر شق المعلم طريقه عبر شارع عباس إلى «المقلب» وراح يغوص فى تلال الزبالة بينما سد منخريه بأصابعه ليبعد عنه الروائح الخبيثة المنبعثة من المكان. وبعد أن دق على الباب عدة دقات أوجعته راح ينادى بصوت عال على الواد ريعو ولكنه لم يتلق جوابا على الإطلاق. وفى النهاية اطلت الحاجة صاحبة البيت وأبلغت المعلم بأن الواد ريعو لم يحضر إلى البيت منذ عدة أيام، وعبثا حاول المعلم أن يعرف من الحاجة أى معلومة عن المكان الذى ذهب إليه ريعو ولكن دون جدوى. عاد المعلم أدراجه مخترقا نفس الطريق الذى سلكه فى الصباح، وشعر بالغيظ الشديد يأكل قلبه، لقد خذله الواد ريعو وأنكر فضله. فهو الذى التقطه من الشارع وهو الذى سمح له بالمبيت فى القهوة عوضا عن الشارع، ثم علمه صنعته التى احترفها

بعد ذلك. ولكن أين يعثر على ريعو الآن؟ وما العمل لضمان حسن سير العمل في القهوة؟

تحولت مشكلة ريعو إلى مشكلة عامة، حتى شلة الأدباء قضوا السهرة كلها في الحديث عن مشكلة ريعو. ووصفها الشيخ شهاب بأنها مشكلة حقيقية تعاني منها مصر كلها في الأزمنة الحديثة، وقال إنه في شبابه اعتاد القعود على قهوة المعلم السروجي، وخلال عام واحد تعامل مع ثلاثين جرسونا بواقع ثلاثة جرسونات كل شهر. وكانت أي غلطة يرتكبها الجرسون تؤدي إلى فصله. وكانت يومية الجرسون عشرة قروش والوردية تستغرق ١٢ ساعة وأحيانا أكثر. ومع ذلك كان الجرسون يقضي وقتا طويلا أمام المعلم يستعطفه ويتوسل إليه أن يبقيه في العمل. كان العاطلون على قفا من يشيل، وكان من بينهم من يقبل أجرا أقل من عشرة قروش في اليوم. اليوم تغيرت الأحوال وأصبح العامل هو سيد الموقف، وأصبح المعلم هو الذي يستعطف العامل ويتوسل إليه. وختم الشيخ شهاب حديثه قائلا :

– إنها علامة من علامات الآخرة.

ولم يكن غياب الواد ريعو فقط هو الذي أدى إلى هذا الانقلاب في روتين قهوة كتكوت، ولكن غياب الأستاذ طلبة هو الآخر لفت إليه الأنظار خصوصا في محيط شلة الأدباء. فمنذ ذهب الأستاذ طلبة غاضبا من تصرفات الواد ريعو لم يقع بصر أحد عليه، حتى الأستاذ الشيخ شهاب مر عليه في منزله ذات يوم ودق عليه الباب ولكنه لم يتلق جوابا، ولم يعطه البواب جوابا شافيا عن السر في غيابه. وإذا كان غياب الواد ريعو مبررا بسبب اعتداء المعلم عليه وعلى مشهد من الزبائن، فما السر في غياب الأستاذ طلبة؟ هل تصرف ريعو معه يؤدي إلى قطيعة نهائية بينه وبين القهوة ؟

يالها من أيام أسود من قرون الخروب مرت على المعلم كتكوت، في كل يوم يظهر في القهوة جرسون جديد، ويمضي اليوم كلشنكان ولكن في المساء تدب الخناقة بين الجرسون والمعلم كتكوت ـ صابر حسنين

لم يحتمل ملاحظة أبداها المعلم فخلع الفوطة وترك القهوة وأسرع إلى الشارع وغاب في الزحام. ولكن تصرف الواد حسنين كان مختلفا، عندما صرخ المعلم كتكوت في وجهه طالبا منه في لهجة آمرة :

– ما تتلحلح يا واد وانت واقف زى الحمار المجروح كده والزباين قطعت إيديها م التسقيف.

رد الواد حسنين قائلا :

– أنا مش حمار يا معلم أنا بنى آدم زيك وعيب تقل أدبك قدام الزباين ورد المعلم وعلامات الشر بادية على وجهه :

– أنت بترد عليّ يا واد ؟

– بقولك إيه ؟ فوق لنفسك، أنت راجل كبير في السن واحفظ أدبك، ورب الكعبة أخللى اللى ما يشترى يتفرج عليك.

عند هذا الحد لم يستطع المعلم السيطرة على نفسه، اندفع نحو الواد حسنين ولطمه على وجهه لطمة قوية، وفي غمضة عين كان الواد حسنين قد حمل المعلم بين ذراعيه وألقى به على الأرض، ثم خلع الفوطة ورماها على المعلم الممدد على الأرض، ثم بصق عليه وغادر القهوة وهو يبرطم بكلام غير مفهوم. وضع المعلم كتكوت ذراعه في الجبس بعد هذه «الوقعة» التى حطمت عظام جسمه، واكتفى بالقعود على مقعد مريح على رصيف القهوة وتغيرت أحواله فلم يعد يتدخل في أى موضوع ولم يعد يتكلم مع الآخرين ولكن حدث بعد شهر من كسر ذراعه ما جعل المعلم كتكوت يعود إلى طبيعته المشاغبة. فقد جاء عبدالحفيظ إلى القهوة ليعمل جرسونا ليوم واحد. وهمس في أذن المعلم بسر خطير. إن الولد ريعو هرب مع البنت عزيزة وتزوجا ونزحا إلى الاسكندرية حيث يعمل ريعو في مقهى شهير هناك، ويعيش الزوجان معا في حي غيط العنب، يا الله لم يلتفت أحد إلى غياب البنت عزيزة بياعة اليانصيب. ولم يربط أحد في القهوة بين غيابها وهروب الواد ريعو. وثلاثة أيام كاملة والمعلم يهذى كالمجنون.. وهو يدور حول نفسه فوق رصيف القهوة :

- صحيح، تربي الكلب ينفعك، تربي البني آدم يقلعك!
قال له الشيخ شهاب ذات مرة :
- وناوى تعمل إيه يا معلم؟ هتفضل تولول كده زى الأرملة.
- هو مين؟ دنا هاجيبه لو كان فى بطن أمه.
كان واضحا أنه يقول هذا الكلام من غلبه. وأنه رجل عاجز وغليان ومهزوم أيضا. وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى الانتظار والكلام ولكن الموظف السابق الذى عمل جرسونا فى وقت سابق ليضمن الحصول على الشاى قعد مع المعلم ذات صباح وأقنعه بأنه قادر على الوصول إلى الملهى الذى لجأ إليه الواد ريعو وزوجته.
- مادام قاعد فى غيط العنب يبقى اطمئن يا معلم.
تساءل المعلم فى لهفة :
- إزاى يعنى ؟
- ما هو أنا فى مبدأ حياتى اشتغلت فى اسكندرية وسكنت فى غيط العنب وأعرف كل الناس هناك، ويبقى حظنا كويس لو كان المعلم أبو عوف لسه عايش.
- مين أبو عوف دا ؟
- دا راجل زى حضرتك كده. الناس كلها تهابه وتعمل له ألف حساب، زى ما تقول فتوة غيط العنب يعنى، وراجل طيب ويخدم الناس لوجه الله، لو كان عايش هيجيبه من تحت تقاطيق الأرض.
- وأنت تعرفه الراجل ده ؟
- دا صاحبى الروح بالروح، ماكانش يقعد ولا يشرب الشاى ولا يفطر الصبح بدرى إلا مع محسوبك.
- طيب أنت فاضى تيجى معايا المشوار ده.
فكر الموظف السابق بعض الوقت ثم قال :
- وحتى لو مشغول أفضى نفسى عشانك يا معلم.
واتفق المعلم كتكوت والموظف السابق على السفر إلى الإسكندرية. ولكن قبل يوم واحد من السفر فاجأ المعلم كتكوت الموظف السابق

بأنه صرف النظر عن السفر معه إلى الاسكندرية لأنه يحتاجه فيما هو أهم من السفر. وتساءل الموظف السابق :

– خير يا معلم .

– أنا مش هلاقى أحسن منك ياخد باله م القهوة.

– مش فاهم يا معلم.

– مانت عارف.. أنا واحدانى لا ورايا ولا قدامى - هسيب القهوة وامشى هتتاكل، والناس ما بقاش فى قلوبهم رحمة، وأنت عارف الزباين وعارف العيال الكل شغالين فى النصبة أنت أقعد باشر القهوة وهاديلك خمس جنيهات كل يوم.

– من غير فلوس يا معلم، بس أنت عارف الدنيا بقت غالية أد إيه ورع العموم أنا خدامك. بس برضه عاوز أقولك إن سفرى معاك كان أحسن.

– أنا أصلى من غير مؤاخذة قابلت الضابط مصطفى شمعة اللى كان فى المباحث هنا فى الجيزة، ودلوقت هو فى اسكندرية ولما عرف حكاية الواد ريعو والبنت عزيزة قالى لى تعالالى اسكندرية وأنا هاجيبولك. وفعلا خد منى صورته واسمه بالكامل ونمرة البطاقة بتاعته، وإن شاء الله ربنا هيكرمنى.

غادر المعلم كتكوت مصر إلى الاسكندرية، وقعد الموظف السابق مكان المعلم يدير القهوة بطريقة أفضل، وغاب المعلم عدة أيام قبل أن يعود إلى الجيزة، ولكنه عاد وقفاه يقمر عيش كما وصفه عم عبده الصنايعى الذى يباشر العمل فى النصبة.

– وعملت إيه يا معلم فى اسكندرية؟

– الراجل الظابط كتر ألف خيره عمل بأصله. بس الواد ريعو مالوش وجود فى غيط العنب ولا فى اسكندرية كلها، يظهر الواد اللى نقل لنا الخبر دا كداب.

– وناوى تسكت يا معلم؟

– مين دا؟ هوه هـيروح مني فين، دا لـو كان عند العفـاريت الزرق برضه هاجيبه.

طلب المعلـم من الموظف السابق أن يواصل مـهمـة الإشراف على القهوة لأنه قرر التفرغ للبحث عن ريعو، وبالفعل خطف رجله في اليوم التالي إلى بيت عزيزة والـتقى مع أبيها الذي كانت رائحـة البوظة تفوح منه، وعندما سأله عن عزيزة هب صارخا :

– ماعنديش بنات هنا وماليش بنت اسمها عزيزة.

– أصل أنا سمعت إنها.

وقاطعه والد عزيزة بحركة عصبية قائلا :

مش عاوز اسـمع أي حكاية عن عـزيزة، وأنا ما عـرفش حد اسـمه عزيزة، ولا كـان عندي حد اسـمه عـزيزة.. وكفـاية كده يا مـعلم بقى، عشان أنا اللي دهاني مكفيني.

– لم يسـتطع المـعلم أن يـصل مع والد عـزيزة إلى شـيء. فـآثر السلامـة وعاد إلى القهوة وقـد تأكد أن الأبواب كلها مـغلقة، وأن الواد ريعو اخـتفى من حـياته إلى الأبد. ولكن الجـرسون عـبدالحـفيظ الذي همس في أذن المـعلم ذات صـباح بأن ريـعو والبنت عـزيزة في غـيط العنب جاء إلى القهوة مرة أخرى حاملا نبأ جديدا ومثيرا.

– البنت عزيزة يامعلم بتيجي تشـوف أهلها أول كل شهر. وبتيجي يا معلم شايلة ومبضعة ولابسة موضة وحالتها معدن خالص.

لم يكذب المعـلم الخبر فـقرر أن يرابط عند أحد الـبقالين أصـدقائه بالقرب من مسكن أسرة عـزيزة وثلاثة أيام كاملة والمعلم مربوط على مقعد أمام البقالة مدعيـا للبقال صديقه أن الولد ريعو لهف إيراد القهوة لمـدة شهـر كامل وفص ملح وداب وكـاد يفقـد الأمل في العثـور على عزيزة، ولكن ربنا أراد للمعلم أن ينجح في مسـعاه في آخر لحظة. فقد ظهرت البنت ثالث يوم في الشهر. ويا سبـحان الله.. كم تغيرت عزيزة، الذي لا يعرف أصلها يتصور أنها بنت ذوات أو خوجاية. وجاءت تحمل أشيـاء كثـيرة. ولكن هل تغـيرت أحـوال ريعو إلى هذا الحـد؟ ودخلت

عزيزة إلى الاسطبل الذى تقيم فيه وغابت طويلا. ولم تخرج إلا بعد غروب الشمس، وخرج خلفها الرجل الدنف أبوها. ولكنه لم يصاحبها أكثر من عدة خطوات ثم تركها وعاد إلى الإسطبل من جديد.

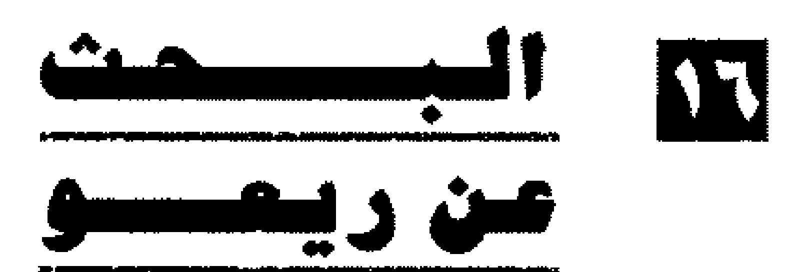
ونهض المعلم كتكوت وتعقب عزيزة، اخترقت شارع عباس ثم انحرفت ناصية سينما الفانتازيو، ثم خرجت إلى شارع الترماى ومرت أمام قهوة سان سوسي، ثم دخلت القهوة من الباب المطل على شارع المدارس وخرجت من الباب المفتوح على شارع مراد، وانحرفت يسارا في طريقها إلى حديقة الحيوان.

وقبل أن تقطع مسافة كبيرة لحق بها أحد الافندية وتبادلا الحديث ثم راحا يقطعان الطريق معا. وأسرع المعلم كتكوت وراءهما حتى لحق بهما.. ياقوة الله.. مين؟ الاستاذ طلبة.. طلبة وعزيزة لقد كان ينتظر ريعو وعزيزة، ولكن ها هى الحقيقة أمامه عارية بلا غطاء. الاستاذ طلبة وعزيزة، وعزيزة أصبحت أنثى تؤكل مقشرة ولا اللوز الحلبى. ولكن ما العمل الآن؟ هل يمسك بتلابيب عزيزة؟ وما علاقته بعزيزة؟ ثم ما علاقة عزيزة بالاستاذ طلبة؟ هل هو زوجها؟ هذه كلها حقائق لابد من معرفتها جيدا قبل الإقدام على أى خطوة من هذا النوع؟ المهم أن المعلم تعقب عزيزة وطلبة حتى اختفيا داخل عمارة على شاطىء النيل بالمنيل. وانفجر خبر عزيزة وطلبة فى قهوة كتكوت كالقنبلة. وأعلن الشيخ شهاب عن عزمه لزيارة طلبة لكشف حقيقة الأمر. وعلق الشاعر خميس على الموضوع ساخرا :

- يظهر إن عزيزة قرأت كتاب الاستاذ طلبة فوقعت فى غرام الاستاذ من أول سطر.

وقال الاستاذ عجماوى.

- ما حدث ليس الأول من نوعه.. فقد تزوج الفنان المبدع تولوز لوتريلى؟ من بنت بياعة خضار فى سوق باريس. وتزوج الشاعر الانجليزى الكبير بيرون من بنت كانت تقدم الخمور لرواد بار باتش فى أثينا. فما هو الغريب فى ارتباط طلبة وعزيزة؟



انفجرت حكاية عزيزة وطلبة كالقنبلة في قهوة كتكوت، وكان لانفجارها دوى رهيب فى الجيزة كلها. عزيزة تزوجت طلبة، وطلبة اختار عزيزة من بين نساء الارض جميعا، وعزيزة بنت الإسطبل أصبحت تعيش في شقة على شاطىء النيل. ولكن المعلم كتكوت أقسم بكل المقدسات أن عزيزة تعيش مع طلبة في الحرام، وأنه تزوجها بعقد عرفي، والعقد العرفي - كما أكد المعلم - ليس في شريعة الإسلام.

ولكن عزيزة ليس لها ذنب، الذنب كله هو ذنب الرجل الديوث الخمورجى أبوها، كان يكذب عندما ادعى أنه لا يعرف مكانها وكان يناور عندما ادعى أمام المعلم كتكوت أن البنت لا ترغب فى الزواج وهددته بالهروب بعيدا عن أهلها إذا أجبروها على ذلك.. إنه سر فى حياة المعلم كتكوت حرص على إخفائه عن الجميع لقد قرر ذات يوم أن يتزوج عزيزة، فهى صبية وشهية وفقيرة ولن ترفض الزواج من المعلم الذى سينقلها من التعاسة إلى الحياة الكريمة كان المعلم يومها فى الواحدة والستين من عمره وكان ممتلئا صحة وشبابا ويشعر بأنه لا يزال فى الثلاثين.

ولكن الديوث «أبوها» زعم أن البنت ترفض فكرة الزواج مع أن الرفض كان من جانبه كان يتطلع إلى أفندى ينفق على عزيزة وينفق أيضا على الأسرة كلها ولكن كل شىء سيعود إلى أصله لو ظهر الولد

ريعو، لأن ريعو لن يسكت على هذا الوضع الغريب، فهو يحب عزيزة وعزيزة هي الأخرى تحبه، وكان على خَقَ في ثورته يوم أهداه طلبة كتابا لعزيزة لو ظهر ريعو الآن لفتح كرش الأستاذ طلبة، وبالطبع سيذهب ريعو في الحديد وسيخلو الجو للمعلم كتكوت ليتزوج عزيزة ويأخذها في حضنه وستعيد له شبابه الذى ذهب بالتأكيد. لا شىء يعيد الشباب للعجوز إلا الصبايا في سن عزيزة. وراح المعلم كتكوت يشمشم حول المكان الذى يمكن أن يوجد فيه ريعو هل ذهب إلى السجن؟ لو ذهب إلى السجن فهو لابد كان سيتصل بالمعلم لأنه بالتأكيد سيحتاج إلى سجائر وملابس، وعدم اتصاله بالمعلم هو الدليل القاطع على أنه لم يذهب إلى السجن. هل ضربته سيارة على الطريق وفشلوا في معرفة أصله وفصله فدفنوه في مقابر الصدقة؟ ومع ذلك لم يكف المعلم كتكوت عن مساعيه لمعرفة مصير الواد ريعو سأل على الصعيدى إذا كان يستطيع معرفة وجوده فى السجن وقال على الصعيدى للمعلم :

– اللى زى ده مفيش قدامه غير سجنين.. الاستئناف فى باب الخلق أو سجن القناطر، لأن اللى زى ده هتكون تهمته إيه؟ جنحه مفيش حاجة ثانية، يعنى سنتين ولا ثلاثة ولازم هيكون فى واحد م السجنين دول، وبعد يومين بالضبط هاجيبلك الخبر المظبوط.

وعاد على الصعيدى بعد أيام بنبأ كان السبب فى مضاعفة هموم المعلم كتكوت :

– الواد ريعو مالوش أثر فى سجن الاستئناف ولا فى سجن القناطر!

وأجاب المعلم كتكوت وهو ينفخ :

– أمال راح فين الحمار ده ؟

– الغايب حجته معاه يا معلم.

أهمل المعلم كتكوت القهوة تماما وسلمها للموظف السابق، وانشغل

بموضوع عـزيزة وطلبة، وأصبح شغله الشاغل البحث عن الواد ريمو وشـعر المـعلم بالراحة بعض الشـيء عندما مـر عليه الواد أبو سـريع العجلاتى وأخبره بأن الواد ريمـو فى العراق وأنه رآه بعينيه يعيش فى حى المربعة ببغداد.

– وبيشتغل إيه هناك ياد يابو سريع.

– هيشتغل إيه يعنى يا معلم ؟ مهندس،؟ أهو زى ما هو.. قهوجى.

– وبياخد كام هناك يعنى ؟

– بياخد كويس، وبيحول وبقى معاه دورارات!

– وهيه الدورارات ياد تغنى الراجل عن الوطن ؟

– وهو إيه الوطن يا معلم، الوطن اللى تلاقى فيه عدلك.

– وهوه كان جعان هنا ياد ولا عريان.

– وهيه الدنيا أكل وهدوم بس يا معلم، دا لوقعد هناك سنتين يمكن هييـجى تمام، يشوف له مطرح ويتجـوز كمان وضحك المـعلم ضحكة ساخرة وقال :

– يتجـوز؟! يتجوز مين، مـا هى اللى كان حاطط عينه عليـها هربت مع الأستاذ طلبة وقاعدة معاه فى الحرام؟

– هيه مين دى يا معلم ؟

– السفيرة عزيزة؟

– عزيزة مين؟

– عزيزة بتاعة اليانصيب، بنت الراجل الخمورجى اللى ما عنده ذمة ولا دين.

– وبتقول هربت مع مين؟

مع الأستاذ طلبة.

– الأستاذ طلبة مين؟

– دا من الناس اللى ما تعرفهومش أنـت، من الجماعة الادباتية اللى بيكتبوا فى الجرايد.

– وإيه اللى لم الشامى على المغربى؟
– الوعد والمكتوب!!
سكت المعلم فترة وشرد بعيدا ثم سأل أبو سريع.
– والواحد يتصل ازاى بالواد ريعو.
– لا.. دانت تسافر له بقى، العراق فيها مصريين كتير.
– والسفر دا يتكلف كثير؟
– حق التذكرة فى الطيارة، وميت جنيه فى جيبك، إذا كنت ناوى تقعد هناك كام يوم، وبعدين لو عاوز نصيحتى، خد معاك شوية ثوم.
– ثوم ؟ ليه.. هنطبخ ملوخية هناك ؟
– أصل الثوم غالى قوى هناك اليومين دول.
– وأنا رايح أتاجر.
– لمؤاخذة يا معلم، هو إنت اللى مسافر؟
– لسه بفكر، أصلى أنا محتاج الواد ريعو قوى، بينى وبينك القهوة خابت بعد ما سافر، والحتة اللى قاعد فيها اسمها إيه؟
– المربعة يا معلم.
– ولو سألت هناك يدلونى على طول.
– دى حتة معروفة يا معلم، زى ما تقول هنا شارع محمد على، الأزهر، فم الخليج، حاجة زى كده يعنى.
عاش المعلم كتكوت الأيام التالية يفكر بعمق فى خطواته القادمة، لم يدرك المعلم كتكوت أن القهوة تدهورت أحوالها بسبب إهماله لها، إلا عندما راجع الإيراد واكتشف أن الحال ليس على ما يرام ولأول مرة منذ مدة طويلة يسأل الموظف السابق الذى يدير القهوة عن شلة الأدباتية وهل يحضرون أحيانا أم أنهم انقطعوا عن الحضور، وعندما جاءه الجواب بانقطاعهم منذ مدة طويلة، تساءل المعلم فى غير حماسة وكأنه يسأل نفسه :
– وما حدش عرف إيه الحكاية ؟

– مين هيسأل يا معلم؟ إحنا أيام كثيرة بنشتغل بأيدينا وأسناننا، والعمال أغلبهم سافر العراق، والحكاية بقت مقشفرة ع الآخر.

واستبد الهم بالمعلم كتكوت فلو أن الولد حسن ـ ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة ـ استمع إلى نصيحته وكف عن افتعال المعارك ضد الآخرين، لكان الآن على قيد الحياة ولكان الآن ذراعه اليمنى فى الورطة التى يواجهها الآن. كم مرة نصحه بالابتعاد عن جماعة الكوامل الذين يحتلون الرصيف المواجه للقهوة.

إنهم نوع صعب من البشر مستعدون للموت فى سبيل الحصول على ما يعتقدون أنه حق لهم وهم أقوياء ومتحدون ولكن حسن كان مغرورا بقوته الجسدية، ويتصور أنه قادر على هزيمة أعدائه وحده دون معين.. يا له من يوم أسود من قرون الخروب عندما جاء إلى القهوة فى الصباح الباكر ليجد جثة حسن مطروحة على الرصيف وآثار معركة رهيبة تبدو واضحة على الجدران وأرضية الشارع وبقايا أقفاص الموز التى تبعثرت محتوياتها على الرصيف، مات حسن بضربة شومة على رأسه جعلت مخه يتناثر على الحيطان مع بقع دم كبيرة منه ومن منافسيه فلم يكن حسن لقمة سائغة، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون!

ما العمل الآن يا معلم كتكوت؟ والسفر إلى العراق أصبح أمرا ضروريا خصوصا وقد عرف من الولد «أبو سريع» أن السفر لا يحتاج إلى التأشيرة فدخول العراق مباح لكل العرب، وليس مثل بلاد الخليج دخولها يحتاج إلى تأشيرة وإلى كفيل. لا كفيل فى العراق إلا الله الواحد الأحد الذى يكفل الجميع»، وفى المساء كان يجلس مع الموظف السابق «عبدالمقصود» وبادره المعلم قائلا :

– شوف يا خويا يا عبدالمقصود، إنت راجل طيب وأنا ارتحتلك، وبعدين أنا مسافر العراق كام يوم كده، ومحدش يعرف الموت م الحيا.. والغيب فى علم الله، عشان كده أنا فكرت اسيبلك القهوة بس

بالإيجار، وهنكتب ورق عشان كل واحد يعرف راسه من رجليه.

وقال عبدالمقصود والدهشة لم تفارقه

– وبكام يا معلم.

– أنا مسامح بـــ ٥٠٠ جنيه في الشهر، ودا عشــان خاطرك، واللي هيطلع منها حلال عليك.

– مش كتير يا معلم ؟

– أنا حـددت المبلغ دا عـشان خـاطرك وبعـدين أنا مسـامح وربنا يباركلك.

ورد عبد المقصود على الفور :

– اللي تؤمر بيه يا معلم.

– خلاص، أنا قلت للواد كامل، الكاتب بتاع الأستاذ صالح المحامي ييجي القهوة بكرة ويكتب العقود، ونـروح بعد بكرة نسجلها في الشهر العقاري وعلى بركـة الله. تمت الإجراءات كلها بسرعة وأصبـحت قهوة كتكوت من نصـيب عبدالمقـصود، يتصرف فـيها كمـا يشاء إلا الاسم، فستظل إلى الأبد قهوة كـتكوت وذات صباح ارتدى المعلم كتكوت اللي على الحبل كله واسـتقل الطائرة المصـرية إلى بغداد. في الطائرة تمنى العـثور على الواد ريعـو بسرعـة وأن يقوم بتـرحيله إلى القـاهرة على الفور ولو اسـتدعى الأمر منحه نـسبة من أرباح القهـوة. ويا سلام لو سنحت الفـرصة بالقـيام بـعمـرة في الأراضي المقـدسة، يقـولون إن الحجاز على مقربة من العـراق، فتكون زيارة وتجارة في الوقت نفسه، لو تحـقق كل هذا الذي يحلم به المعلم كـتكوت، فإنه يكون قـد نال كل ما يتمناه.

عودة ريعو والانتـقام من الأستاذ طلبة خـاطف عزيزة والعودة إلى مكانه وراء المكتب في القهوة واسـتئناف الحياة كما يشـتهي، ويضـمه بيت واحد مع عزيـزة التي ستعيد إليـه شبابه المفقـود في مطار بغداد لفـتت نظره المعـاملة الخـشنة التي يعـامل بها الـمصـريون ولكنه لم

يتوقف عندها طويلا فهذه المعاملة يجدها العمال المصريون فى مطار القاهرة نفسه، واسترعى انتباهه أسئلة رجال الجمارك للمعلم عن البضائع التى يحملها معه ثم دهشتهم الشديدة عندما لم يعثروا معه إلا على ملابسه.. غريبة!! لم يشاهدوا أحدا مثله من المصريين القادمين منذ مدة طويلة. فتشوه بسرعة وتركوه ينصرف، وفى التاكسى الذى اشترك فيه مع آخرين من المصريين اكتشف أن الجميع فى طريقهم المربعة بعضهم كان من المترددين على بغداد منذ فترة طويلة، وبعضهم يضع قدمه على أرضها لأول مرة عندما وقع بصره على المربعة أول مرة هتف : يا سبحان الله الخالق الناطق مثل حى الفوالة ومثل سوق الليمون فى باب الشعرية والناس كلهم من مصر، أصحاب المحلات والعمال الذين يعرضون ما جلبوه معهم من بضائع على الرصيف وهى بضائع بسيطة، ليمون بنزهير، ثوم، مجموعة فونيات لبوابير الجاز، علب زيت طعام، راح يسأل عن الواد ريعو ولكنه اكتشف أن أحدا لا يعرفه، بعضهم قال له :

– يمكن فى البصرة يا معلم، أو مين عارف يمكن فى دهوك.

– وفين البصرة ؟

– لزق فى الكويت لا مؤاخذة.

– ودى عاوزة تأشيرة؟

– لا يا معلم، دى حتة من العراق، زى ما تقول أسيوط كده.

وركب المعلم مع بعض المصريين إلى البصرة يا سلام على أرض العراق، الخالق الناطق زى أرض مصر بس للأسف مش مزروعة كلها، والملح باين فى الأرض مع إن «النيل» ماشى فى قلبها وها هى البصرة حاجة كدة زى رشيد من غير مؤاخذة، والناس بتوع العراق ـ الحق يتقال ـ أجدع ناس من غير مؤاخذة. الشىء الوحيد الذى ضايقه بشدة.

– الواد ريعو مالوش أثر هنا.

– يمكن راح دهوك يا معلم.

- ودهوك دى فين؟
- دى جنب تركيا يا معلم.
- عجايب هيه تركيا النواحى دى كمان؟ لكن مين اللى هيودى ريعو هناك؟
- أكل العيش يحب الخفية يا معلم.

عاد المعلم كتكوت إلى بغداد وإلى المربعة من تانى. من حسن حظه أنه التقى بسواق مصرى على نياته يذهب إلى دهوك مرة كل أسبوع اتفق المعلم على السفر معه.

- يا حلاوة يا ناس على دهوك، داناس خواجات كلهم وبيرطنوا من غير مؤاخذة.. ودول مسلمين كمان ؟
- مسلمين وسنّة يا معلم.
- يا سلام على قدرة ربنا، ويخلق مالا تعلمون.

لكن الأمر المؤسف أن ريعو ليس له وجود هنا أيضا.. طيب يا ريعو الكلب أنا وراك والزمن طويل وعاد المعلم من جديد إلى المربعة فى بغداد يبدو أن الدنيا مستمرة فى عنادها ولابد من العودة إلى القاهرة.. نصحه أحدهم إذا رغب فى العودة أن يذهب بجواز سفره إلى إدارة المواطنين العرب ليحصل على تأشيرة الخروج. لم يفهم المعلم ما هو المقصود من تأشيرة الخروج ولكنه ذهب يا قوة الله، الناس تحيط بالمبنى وكأنهم فى يوم الحشر ناس من كل الأمم، دا مصرى ودا سودانى ودا تونسى ودا يمنى ودا لبنانى، ودا مسلم ودا ارثوذكسى، أمم من غير مؤاخذة، والشمس حراقة يا أبا، والعساكر ما بترحمش، والضرب فى الناس على ودنه، ودى بهدلة إيه ده؟ مش لازم تأشيرة خروج، ما يمشى وخلاص، وبالفعل لم يستمع إلى نصيحة أحد، أخذ بعضه وذهب إلى المطار وعبثا حاولوا إفهامه أن السفر مستحيل بدون تأشيرة خروج وصرخ بأعلى صوته وسب الأخضرين.

- عجايب يا ناس ، قال بطلوا دا واسمعوا دا ، دى بلد أو فخ قال

إيه ؟ تيجي يا مرحبا بك تخرج لا، دا حمار مين اللي عمل النظام ده.

انهال العساكر على المعلم كتكوت وأعطوه بسطة عراقية محترمة وأرسلوه إلى السجن ووجد المعلم نفسه أخيرا في محكمة الثورة.

– محكمة ليه يا سعادة الباشا هوه أنا اذنبت؟ أنا عاوز ارجع بلدنا.

– فيه قانون لازم نحترمه.

– قانون إيه يا باشا، دا اللي عامل القانون دا حمار.

– بتقول مجلس قيادة الثورة حمار ؟

– مين هوه الثورة دا، أنا ما عرفش حد بالإسم دا.

– عشر سنين سجن.

– بتقول إيه؟ عشر سنين يا كافر، ليه أنا قتلت حد؟ عندما جذبه العساكر من قفاه ليخرجوه من المحكمة قاومهم المعلم بشدة.

طرح أحدهم على الأرض وكسر فك الآخر. ولذلك أعادوه مرة أخرى إلى المحكمة ليستمع إلى الحكم عليه في التهمة الجديدة لم يتمالك المعلم نفسه عندما سمع الحكم عليه بالمؤبد.. مؤبد يا ولاد الكلب، لو كنت في بلدي لما تعدى الحكم أكثر من شهر سجن. ومع ذلك طرد المعلم من رأسه فكرة المقاومة لأن الحكم القادم سيكون الإعدام .

استسلم لمصيره وذهب مع العسكر إلى سجن عمومي يختلف عن السجن الذي كان فيه، وعرف فيما بعد أنه على مسافة عدة كيلومترات من بغداد. يا رحمة ربنا، عنابر كلها مصريين وسودانيين وناس من فلسطين ومن الصومال.

ويا ضربة الحظ التي كان ينتظرها المعلم كتكوت لقد عثر في النهاية على الكنز الذي كان يبحث عنه.

– حمد الله ع السلامة يا معلم.

– هوه إنت يا وش النحس ؟ يخرب بيت أبوك إنت اللي رميتني في المهالك دي.

– مهالك إيه يا معلم؟ كلها كام شهر إنشاء الله وتطلع على مصر بإذن الله.

– كام شهر إيه يابن المجنونة دنا واخد تأبيدة.

– ولا يهمك يا معلم، فيه ناس كانت واخدة إعدام وافرجوا عنهم، حاكم هنا كل كام شهر يفرجوا عن المساجين العرب فى عيد الثورة، وعيد الرئيس، رئيس عربى يتوسط، حاجات كتير بتفتح باب السجون وتمشى الناس من هنا.

وانت واخد كام يا وله ؟

– عشر سنين يا معلم.

– ليه عملت إيه؟

– بينى وبينك أنا غلطان، واد سواق مصرى بيشتغل مع الجيش كان بيجيب سلاح من الكويت ويدرب جنب إيران والحرب كانت شغالة، ويجيب من هنا قتلى عراقيين يدفنوهم هنا اشتغل فى التهريب، ياخد ناس معاه وهوه رايح الكويت ويلبسهم عساكر، وفى الكويت ينزلهم، كانت شغلة حلوة ومكسبها كتير، طمع.. بقى يهرب عراقيين، هرشوه ومسكوه.

– طيب وإنت مالك؟

– ما هو كان بيخبى عندى لبس الجيش اللى هيلبسوه الهربانين.

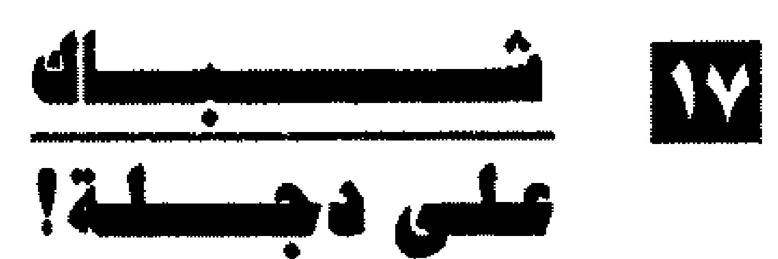
– أمال أنا سألت عنك فى المربعة ماحدش عرفك.

– مانا مارحتش المربعة دى خالص، أنا كنت فى بلد اسمها إسكندرية الشغل كتير هناك والمكاسب حلوة قوللى يا معلم.. إزاى القهوة؟

– قهوة إيه بقى، هوة احنا هنشوفها تانى!

– إيه رأيك إحنا هنشوفها قريب يا معلم كام شهر وبكره تفتكر يا معلم.

واستقر المقام بالمعلم كتكوت فى سجن «أبو غريب» ومعه الواد ريعو، الذى علم منه تفاصيل هروب عزيزة مع الأستاذ طلبة وانفعل الواد ريعو بما سمعه من المعلم، لدرجة أنه قضى الليل كله يبكى وهو ممدد على الأرض بجوار المعلم كتكوت.



مضت الأيام بطيئة وكئيبة فى سجن أبو غريب ، وبعد مرور عدة أشهر فقد المعلم كتكوت صبره وفقد أمله فى الخروج يوما ما من هذا القبر . وعبثا حاول الواد ريعو أن يعيد الطمأنينة إلى قلب المعلم ، ولم يكن المعلم على استعداد لسماع أى شيء عن العفو الذى سيصدر فجأة ، ويعيد المعلم من جديد إلى ميدان الجيزة وإلى قهوة كتكوت . ترى .. ما الذى حدث للقهوة من بعده ؟ هل انضبطت أمورها ؟ هل تم تجديدها ؟ هل تحطمت وتناثرت أشلاؤها ؟ والمعلم كتكوت يعرف من تجربته أن القهوة بالمعلم وليس العكس . وقهوة بدون معلم لابد يصيبها الخراب ، ولابد يهجرها الزبائن ، لأن المعلم فى دنيا القهاوى هو الأصل ، إذا كان المعلم ابن مهنة وله مهابة وموضع احترام ، فستكتسب القهوة نفس الوضع والعكس بالعكس ! وهذا الموظف الذى حل محله فى القهوة ، لا هو معلم ولا هو قادر على حمايتها ، وخروجه الآن من السجن قد يكون هو الحل الوحيد لإنقاذ القهوة قبل أن يلحق بها الخراب ، ولكن كيف يخرج من هذا القفص الحديدى الذى يشبه بيت الأسد فى حديقة الحيوان ، لابد أن هناك وسائل للخروج ولابد من اكتشافها ، وذاع أمر المعلم كتكوت بين نزلاء السجن ، وذات يوم أثناء الفسحة الصباحية تقدم منه أحد النزلاء وقدم له نفسه ، عراقى من البصرة ، ورحب المعلم بالنزيل وقال :

— أنا زرت بلدكم ، الحق يتقال بلد ترد الروح ، خصوصا النخل اللى هناك والميه اللى زى العسل الأبيض .
وسكت المعلم فترة قبل أن يسأل النزيل :
— وانت من غير مؤاخذة تهمتك إيه ؟
ورد الرجل العراقي على الفور :
— أنا من حزب الله .
وقال المعلم كتكوت :
— سبحان الله .. أنعم وأكرم . لكن من غير مؤاخذة تهمتك إيه ؟
— قلت لك أنا من حزب الله .
— ونعم بالله . لكن السجن ليه ؟ قتل ، مخدرات ، التهمة إيه ؟
— يظهر أنك مش راح تفهم . ع العموم ، انت هنا ليه ؟
— واللى خلقك مانا عارف ، أنا رحت أجيب إذن عشان أسافر ، حصلت خناقة نزل العساكر فينا ضرب ، واحنا كمان ضربناهم ، جرجرونا على الثورة .
— جرجروك على وين ؟
— محكمة اسمها الثورة . وهناك وقعت خناقة بينى وبينهم ، وعينك ما تشوف إلا النور .
— وحكموك أد إيش ؟
— يحكموا زى ماهم عاوزين ، أنا مش قاعد ، وربنى سبيل . للهرب وخيوب عليَّ إذا ما هربت من هنا .
— أنصحك يا معلم ما تردد هاذا الكلام : لو سمعوك هيصفوك .
— يعملو إيه ؟ يصفونى . حلوة دى ، هوه أنا قوطة من غير مؤاخذة.
ابتعد النزيل العراقى وتسلل فى زحام العنبر واختفى عن الأنظار ، وسرح المعلم كتكوت فى كلام زميله العراقى ، يبدو أن تهمته بطالة من غير مؤاخذة ولذلك أخفاها واكتفى بأنه من حزب الله ! دنيا وسيدك عالم بأحوالها ، ومن شاف بلاوى الناس هانت عليه بلوته . مر أسبوع

كامل قبل أن يرى النزيل العراقى مرة أخرى .. ولكن الرجل لم يبد أى رغبة فى الحديث إليه ، وسرعـان ما غاب فى الزحام واختفى . لابد أنه معـتوه هذا الشـخص ، وهو معـذور لأن السجن هنا يذهب بالعـقول . السجون فى مصر تختلف ، المعلم دخل سجن مصر زمان فى خناقة لمدة شهر ، ولم يشاهد خلال مدة سـجنه أى مظهر من مظاهر العنف كما هو الحـال هنا . صحيح يوجد عـساكر فى منتهى الـغلاسة ، ولكن كل شى حتى الـغلاسة لهـا حدود . بعـد فترة الـتقى وجهـا لوجه مع الرجل العـراقى الذى أقـبل على المـعلم فى شوق شـديد ، ثم مـد يده للمعلم بعلبـة سجاير (بابل) حكمة الله أن سـجائرهم من نفس النوع .. نفسها ثقيل . ولكن ما الذى جعل الرجل العراقى يتغير هكذا وبسرعة ؟ لابد أن رأسـه أصابه التلف بعد قضـاء عدة سنين . الواد ريعو قلحوس قال لـلمعلم احـذر هذا الرجل العراقى وأمـثاله . كـان رجال المـباحث يحضـرون إلى المصريين فى المكـان الذى يعمل فيـه ويحذرونهم من أعضـاء حزب الله . ويطلـبون منهم الإبلاغ عنهم لأنهم يريدون انـتزاع الحكم وطرد المـصريين وجـميع العرب مـن العراق . وتصور المـعلم كتكوت أن الواد ريعـو أصابه مس هو الآخر . فهـؤلاء الناس من حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، ولكن الواد ريعـو مصر على أن الاتصال بهـؤلاء الناس خطر ، فـالحكومـة علقت الكـثير منهم علـى المشـانق ، واضطر الـعشرات منـهم إلى الهرب واللجـوء إلى البـرارى فى جنوب السـودان ، ومئـآت هاجـروا إلى إيران ، ولكن المعـلم كتكوت ضـحك بسـخرية وقـال لنفسـه (الواد ريعو بقى ضليع فى الفلـفسة !) بـعد أسبوع آخـر كان عدد أفراد الحـراسة أقل وأشعة الشمس تـنفث موجة من الدفء فى فناء السجن المفروش بالرمال . جاء الرجل العراقى مرة أخرى ودس فى يد المعلم علبة سجائـر (سومر) وقال للمعلم كتكوت فى ود حقيقى :

– شوف يا بو ...

– أبو حسن ، لو كان عايش دلوقت ماكنتش شفت المر ده ..

– الله يرحمه ، شوف يابو حسن . احنا نخاف نعمل علاقة مع جماعة المصريين اللي يشتغلون هنا . لان وجودهم فى العراق مرهون بدخولهم عباءة حزب البعث .

لم يفهم المعلم كتكوت حرفا مما نطق به الرجل العراقى الذى واصل حديثه :

– أنا .. جبار الحسين على . وبصراحة أنا قلبى انفتحلك ، لانك راجل صادق مالك علاقة بالحزب ولا بالمباحث .

اختفى الرجل العراقى فجأة كانه فص ملح وذاب عندما اقتحم الحوش أحد ضباط السجن ، وهو رجل شرس وقبضة يده فى حجم البطيخة الكبيرة . ولم يمنع اختفاء الرجل العراقى جبار أن يستمتع المعلم كتكوت بسجائر السومر . ولم ينس المعلم عندما أغلق الحارس الزنزانة فى المساء أن يسأل الواد ريعو سؤالا مباغتا ربما كان رد فعل للجلسة مع جبار :

– انت ياد شغال مع المباحث هنا ؟

– لا يا معلم أنا ماشتغلتش . همه صحيح قالولى لما تشوف حاجة أو أى حد ضد الحكومة بلغنا على طول ، وأنا قلت حاضر ، بس أنا ماشفتش حاجة لحد مامسكونى وجابونى هنا .

– وخدت منهم فلوس يا واد ؟

– لا يا معلم ، همه ما بيدوش فلوس ، انت تبلغ وهمه يسيبوك تقعد فى العراق تشتغل وترزق هنا .

– عجايب ، صحيح بطلو دا واسمعوا دا .

وسأل ريعو وهو يشعر بقلق .

– هوه حد قالك حاجة يا معلم ؟

– أنا سمعت ان كل اللى هنا كان لازم يبلغوا .

– مش لو شاف حاجة يا معلم ؟ وبعدين احنا حنشوف إزاى ؟ احنا

كنا طول النهار شقيانين في الشغل ، لكن كل الناس كانت بتقول حاضر . شعر المعلم كتكوت بالقلق الشديد ، وربما أدرك بشكل ثابت أنه وقع في شر أعماله وأنه لن يغادر هذا البلد على قدميه . ملعون أبو عزيزة ؟ لولاها ما تعرض المعلم كتكوت لشيء مما تعرض له الآن. ولكن ما ذنب عزيزة ؟ المعلم هو سبب كل المصائب ، وعقله الزنخ هو الذي قاده إلى المهالك . ولكن هل الندم سيخلصه مما هو فيه ؟ ليس أمام المعلم الآن إلا الاعتماد على جناب الله ، فهو وحده القادر على تخليصه من هذه المحنة ورده إلى حيث ينتهي ، القهوة وميدان الجيزة وأكلته المفضلة طاجن التورلي بالكتف الضاني وسلطانية الطرشي بمية الدقة من دكان عم عبد النبي .

الواد ريعو جاء بخبر طيب وسط الأحوال السيئة . مجلس قيادة الثورة سينشر كشفا بأسماء المساجين العرب المفرج عنهم بمناسبة تأميم شركات البترول الأجنبية . قال الواد ريعو صادقا هذه المرة :

– لو الأحلام تحققت ياد يا ريعو مش هتشتغل معايا في القهوة .

– ليه يا معلم ؟

– مش هتشتغل عندي بالأجرة بعد كده ، هتبقى شريكي ، هتشتغل معايا بنسبة ، هيبقالك حصة في القهوة .

وصاح الواد ريعو مهللا :

– يا سلام يا ملعم ، دنا هاعمل منها جنة .

– بس يا رب كلام يطلع مضبوط ، ويكون فيه كشف صحيح .

– دا كلام الشويش نفسه .. أبو دينا السمين دا ، ودا راجل زى السيف ، وإن شاء الله هنكون في مصر بعد كام أسبوع .

ومضت الأسابيع والشهور ولم يظهر أثر للكشف ، ويبدو أنه لن يظهر في أى وقت ، وأخيرا ظهر الرجل العراقي چبار ، جاء إلى المعلم كتكوت ليودعه فقد تكرر نقله مع جماعته إلى سجن آخر في الشمال في العمادية وهو سجن تحت الأرض لا ترى فيه شمسا ولا تشم فيه

نسمة هواء ، تمنى له المعلم من قلبه أن يفك الله سجنه وأن ينعم بحريته فى المستقبل القريب . قال جبار بصوت مبحوح

– لم يدخل أحدنا السجن وكتب له أن يرى الأسفلت مرة أخرى .

رد المعلم كتكوت :

– خليك مع الله يا جبار واستبشر .

قضى المعلم كتكوت ليلته يفكر فى مصير جبار ، هل صحيح الداخل إلى هنا مفقود ، جبار وجماعته والمعلم كتكوت أيضا . لولا الخوف من أن يموت على الكفر لقتل نفسه بيده . فحتى الحيوانات لا تطيق هذه العيشة على الإطلاق . وملعون أبو العيشة على هذا المستوى خصوصا إذا فرضت على الإنسان فى نهاية العمر . فى الصباح الباكر وصياح الديكة يتصاعد فى الحقول المحيطة بسجن أبو غريب سقط المعلم كتكوت نائما أو مغشيا عليه بمعنى أصح . ولم يدر المعلم كم من الوقت مضى ، ولكنه نهض مذعورا منهك القوى فقد رأى حلما مزعجا للغاية ، جماعة من منافسيه الطامعين فى القهوة ، اقتحموا القهوة ذات مساء وضربوا الزبائن والعمال ثم حاصروا المعلم داخل النصبة ثم راحوا يضربون بالشوم على رأسه ، ثم جروه من ساقيه خارج القهوة ووضعوه مغمى عليه على شريط السكة الحديد ، وبالرغم من الإغماءة التى احتوته إلا أنه شعر بعجلات القطار وهى تمزق أوصاله ، وعندما استيقظ كانت هناك ضجة شديدة . وعدة أشخاص يفتحون باب الزنزانة فى عنف ملحوظ . خفق قلبه بشدة من الخوف ، ثم سرى فى نفسه شعور بالتفاؤل ، فمن يدرى ؟ لعلهم جاءوا بكشف الإفراج ولابد أن اسم المعلم على رأس الكشف ، ولابد أن فرج الله قريب ، وهو لا يأتى غالبا إلا بعد شدة ثقيلة . نظر إليه بعض الرجال الذين اقتحموا الزنزانة وأمروه بالنهوض . ولم يستطع أن يميز من لهجتهم أى طريق سيدفعون به إليه . ولكنه نهض ودخل مكتب المأمور معهم وخلع ملابس السجن وارتدى ملابسه التى جاء

بها إلى السجن . لابد أنه الإفراج على بركة الله ، ولكن أين الواد ربعو .
أراد أن ينبههم إلى أن ريعو يعمل قهوجي عنده وأنه مظلوم أيضا ،
ولكنهم نهروه وأمروه بالصمت ثم دفعوه إلى خارج السجن واركبوه
سيارة وأحاطوا به من كل ناحية وسارت السيارة تتهادى على طريق
أسفلت . وبالرغم من أنه كان عاجزا عن رؤية أى شيء خارج السيارة
إلا أنهم وضعوا عصابة سوداء على عينيه . وبعد حوالى ساعة زمن
توقفت السيارة وأنزلوه منها ، وعندما أصبح في المكان الذي ساقوه
إليه فكوا العصابة واكتشف أنه في سرداب تسرح فيه العناكب
الصغيرة والخنافس وعلى الحوائط تزحف الأبراص من جميع
الأحجام. وزفر المعلم كتكوت وهتف في ضيق شديد (صحيح اللى
مايرضاش بالخوخ يرضى بشرابه) استمر المعلم في هذا السرداب
ثلاثة أيام قدموا له الطعام خلالها مرتين ، رغيف مسوس لا يكفي صبيا
في العاشرة من عمره وطبق به بعض المرق وقطعة لحم لزجة
ومتهرئة وكأنها لحم برص من الأبراص التي تملأ المكان .. وبعد اليوم
الثالث استدعوه للتحقيق . كان أول سؤال .. ما علاقتك بجبار .. جبار
مين ؟ يا قوة الله ، هذا الرجل الذي تعرف عليه في الحوش . عليّ
الطلاق بالثلاثة لا أعرفه ، ولم أعرف اسمه إلا بعد ثالث لقاء في
الحوش . هل تعلم أنه من حزب الله ، هو جبار دا اللى قاللى . قالك
إيه ؟ قاللى إنه من حزب الله . وأنت تعرف فعاليات حزب الله وتعرف
أهدافه ؟ أنا ما عرفش حاجة . طيب واتكلمت معاه ليه ؟ احنا يا سعادة
الباشا في سجن ربنا يكفيك شره ، والواحد ما يصدق يلاقي حاجة
تشغله عن الهم اللى هوه فيه .. هل منحك بعض علب السجائر ؟ أيوه
سجاير أول علبه كان نفسها حامي قوى ، والعلبة الثانية كانت أحسن ،
وكان نفسي أديله حاجة بس العين بصيرة واليد قصيرة . وآخر مرة
كان جاى مخصوص يودعك ..مش كده ؟ يودعني يعنى رايح الحجاز ،
أنا يا بيه معرفوش وشرفك أنت . عندما انتهى من عبارته الأخيرة

ضربه أحدهم بقطعة حديد على رقبته جعلت رأسه يميل على صدره . وجاء صوت المحقق قائلا في حدة شديدة :

– هاتتكلم والا نوديك الشباك .

– يا بيه هاتكلم أقول ايه ، عليّ الطلاق ما أعرف حاجة .

أشار المحقق للرجل الواقف خلف المعلم بأن يذهب به ، أخذوه إلى الشباك ، لا شباك هناك ولا يحزنون ، إنه نفق ضيق ومظلم تشعر داخله كأنك في ماسورة ، ينتهي النفق بباب حديد من ضلفتين . وتتوسطه دكة خشبية طويلة وضيقة . أشبه بسرير عمليات ، وعلى الحوائط عدة آلات ، شواكيش ومسامير ومناشير وزجاجات رائحتها تدل عليها ، سبرتو وخل وصبغة يود وكميات من القطن والشاش . نام المعلم ليلته على الدكة وفي الصباح جاءه المحقق من جديد ، هدده بأنه إذا لم يتكلم ويقول كل شيء ، فسيكون لحمه طعاما للسمك ، وأمر الحارس بفتح باب السرداب . وتجمد الدم في عروق المعلم كتكوت ، كان وراء الباب مجرى ماء يجري متدفقا صاخبا وله زئير . وقال المحقق للمعلم . هذا هو نهر دجلة .. تعرفه ؟ تسمع عبد الوهاب يغني.. ياشراعا وراء دجلة يجري . هذا هو دجلة . وبعدين شوف . انت مصري والمصريين بالالوف في العراق ، عشان احنا عروبيون ونحب العرب . هذا حزب الله لو مسك السلطة راح يذبح المصريين . تحب تذبح المصريين أنت ؟ احسنلك تتكلم ، قول چبار جالك إيه ؟ وأعطاك إيه يوم ما جاء يودعك ؟ فاهم والا هانقطعك بالمنشار ونحدفك على دجلة !

●●●

لا أحد يعرف ماذا حدث للمعلم كتكوت . ولكن الأكيد أنه لم يخرج من السرداب قط ، ولم يره أحد بعد ذلك . ولكن بعد دخوله السرداب بأسابيع أصدر مجلس الثورة كشفا بالإفراج عن بعض المسجونين العرب كان الواد ريعو من بينهم .. فعل الواد ريعو المستحيل لكي

يعود إلى مصر . ونجيح فى السفر برا إلى الاردن وبالمركب إلى سيناء وبالسيارة إلى القاهرة ، كان فى ظنه أن المعلم كتكوت سبقه إليها ، فقد تم الإفراج عنه قبل الكشف بأسابيع ، ليت المعلم يصدق فى وعده، يعمل فى القهوة كشريك ، وله نسبة فى الارباح . يا سلام يا ناس ، صحيح الوطن غالى . هاهى الجيزة وكوبرى عباس وميدان الجيزة وهاهى القهوة .. أين القهوة ؟ لم يعد هناك قهوة على الإطلاق . لقد انشقت الأرض عن عمارة ضخمة والقهوة اختفت وحل محلها دكان أحذية مستوردة من أغلى الماركات . أين شلة الادباء ، أين الواد حميدو؟ وأين عم عبده ؟ وماذا حل بالرصيف القديم ؟ وأين الميدان نفسه ؟ لقد اختفى وراء الكبارى العلوية والاسوار ومواقف السيارات . لقد انتهت الدنيا يا ربعو ، ولكن أين المعلم كتكوت ؟

رقم الإيداع ٩٨/١٧٣٩٣

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 -0797 - 4





« حكايات قهوة كتكوت » هى مجموعة قصص يرويها الكاتب والأديب محمود السعدني .. وأبطال تلك القصص يمثلون شخصيات المجتمع المصرى فى فترة الأربعينات وحتى الستينات .. وهى فترة شهدت تغييرات اجتماعية خطيرة .. كما أن الحياة فيها تختلف تماما عن الحياة فى مجتمعنا اليوم .. وهى قصص وحكايات مختلفة ومنفصلة .. ولكن يجمع أبطالها شىء واحد .. إنهم من المترددين على قهوة المعلم كتكوت أشهر قهوة فى ميدان الجيزة.. وكانت تنبض بالحياة ٢٤ ساعة فى اليوم .. فى الصباح يتردد عليها كتبة المحامين وأصحاب القضايا لأن القهوة كانت أمام محكمة الجيزة .. وفى الظهيرة يجلس فيها عمال استديو مزراحى والفنانون والكومبارس .. وبعد الظهر تمتلىء بجماعة الموظفين .. وفى المساء والسهرة تتحول إلى ندوة ثقافية أبطالها من أساتذة الجامعة والأدباء الذين لا تنتهى مناقشاتهم إلا عند الفجر.. !!

وقد استطاع محمود السعدنى بأسلوبه الساخر المعروف أن يعيدنا إلى ذلك الزمان لأن نعيش مع أبطال الحكايات مشاعرهم وخناقاتهم وأيضا مآسيهم وأحزانهم.

حكايات قهوة كتكوت .. تصوير دقيق لمجتمع الأربعينات والخمسينات فى مصر .. وتحليل واقعى لتقاليد وأخلاق المصريين فى ذلك الزمان .

نبيل أباظة

الثمن ٥ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم